جريمة [illegible]

حكاية

[illegible]

جريمة سنقر

رواية

مايكل برنس

الفصل الأول
الملاك العملاق، والجني القزم.

لا أعرف في الحقيقة الكثير عن ظروف نشأة وحياة الأستاذ شكرالله، حياته قبل أن نعرفه أقصد، لكني سأبدأ بما عندي وأمري على الله. علمي أن أباه في الأصل من مركز الفتح التابع لمحافظة أسيوط، وأن أمه — السيدة العجوز الطيبة (التي قابلتها ثم ماتت في وقت ما قبل بداية أحداث قصتنا) — هي بلدياتنا عن قريب، من النجع (أقصد نجع حمادي،) لكنها، على حسب ما أتذكر من ذلك اللقاء إياه، كانت قد رمت انتماءها خلفها حين تزوجت، وأعتقد أنها كانت متعصبة جداً لمدينتها الجديدة وقت أن قابلتها. المقدس استافروس (وهو اسم قبطي معناه 'صليب،' والد الأستاذ شكرالله) يحكى أنه كان تاجراً كبيراً للحشيش والأفيون وأنهما كانا سر ثروته، لكني لا أصدق. كذلك يقال أنه كان قد وقع على لقيّة وهو يحفر في بيت أبيه وأكل إخوته، لكني لا أصدق أيضاً. لم أسعد بمقابلته سوى في مرة وحيدة وهو على فراش الموت. كانت في ملامحه كل ملامح شكرالله وإخوته: الوجه الأسمر الممطوط، لدرجة كبيرة، الصلعة المنقوشة، العينان المدمعتان المحمرتان، حولهما هالات سوداء ضاعف منها مرضه، أسنان الجمل بما انطبع عليها من آثار تدخين، وحتى صوته كان بإمكانك أن تميزه بسهولة تامة أنه قريب من صوت أكبر ابنين، وخاصة شكرالله: صوت مزعج مثير للأعصاب، متذمر أو زاعق دائماً، وبه نبرة خنفاء قليلاً. لكنه خلافاً لأبنائه كان شخصاً صغيراً للغاية! وبإمكانك أن تتعرف على سبب تعجبي بسهولة إن كنت، مثل كثيرين جداً، (وخاصة من بلدنا،) ممن عرفوا شكرالله في فترة من فترات حياتهم.

فشكرالله وكل إخوته (منهم أخت، امرأة متزوجة) كانوا عمالقة بشكل غريب. ولا أستطيع نسيان الاحساس الذي انتابني عندما رأيت الأستاذ شكرالله في أول مرة. لحسن الحظ فإنهم قليلاً ما ساروا سوياً، فإن الواحد منهم وحده كان كفيلاً بتحويل الأنظار. طول شكرالله كان يتجاوز المترين بالراحة، وأخوه الأكبر فوزي كان أقصر منه ببوصة بالأكثر. أما السبب الذي فرق بينهم في الخروج فلم يتضح إلا بعد وفاة الوالد. كانت من البداية بينهم مشكلات حول مستقبل تقسيم التركة، خاصة أن الوالد، ربنا يرحمه، كان يقرّب منه فوزي لأنه بكره وأعطاه دوراً كاملاً في العمارة (تلك العمارة الملاصقة لسكن الطلبة تماماً.) كذلك أعطى الوالد شقة لسامية (الابنة) برغم أن زوجها كان رجلاً مقتدراً وتمام التمام ولديه مبان في أطراف المدينة. الحق يقال، من وجهة نظري يعني، أنه قد ساوى بينهم بطريقة ما: فشكرالله من ناحيته كان مسئولاً عن لم الإيراد من الأراضي في الفتح ومتابعة جميع الممتلكات الأخرى في المدينة. لكن لم ير أحدهم الموضوع بتلك الطريقة. فبمجرد أن انقضى الثالث حتى وصلنا الزعيق والخناق. وسمعنا صوت عيّاد، الابن الثالث، وهو يصرخ:

'أفتظن أنك ستأكلنا!'

ثم سمعنا صوتاً ما، كما لو أن سجادة ضربت الأرض، بعده صرير كراس كثيرة تحركت في وقت واحد، ثم تدخل أناس كثيرون (منهم متطفلون كثيرون) لحل المشكلة: التي انتهت ببرود سريع وبهدوء عجيب جداً بعد أيام، على لا شيء. فقد بقيّ الوضع كما هو عليه وقنع فوزي بدوره وشكرالله بريادته في لم الإيجار. ولا أعرف حقيقة كيف كانوا يستأمنونه على أموالهم لكن من المؤكد أنهم كانوا يمسكونها عليه في جهة أخرى.

كان فوزي، بدوره الخاص العلوي، هو الأبعد عنا، وعيّاد، الابن الثالث كما قلنا، هو أقربهم. كان يختلف لك درجات عن فصيلة شكرالله، لكن ليس للشكل الذي يجعلك تظن أنه من أب مختلف، لأنه كان يشبه الباقيين في المنظر ذرة ذرة، ما عدا امتلاء الجسم إذا استبعدناه، فقد كان الوحيد النحيل فيهم. كان

مدمناً على التدخين، ولا يفعل شيئاً تقريباً، وعلى الفرجة على المارات وعلى جاراته. كأنه لم يكن متزوجاً وهو الذي كانت لديه أجمل امرأة في العمارة، بل من الأجمل في الشارع كله. شكرالله مثلاً كان متزوجاً من امرأة اسمها مانجة، كانت مصابة بعدة أمراض لم أفهمها، غالباً في الكبد، أو وحمات على الكبد أو شيء مشابه، جعلت لحمها يُمتص وجلدها يتسع عن مقاس جسدها، فإن شاهدتها فكأنك تشاهد سحلية عجوزاً، أو أي حيوان زاحف في موسم تغيير الجلد. وللعلم، فقد عافها وكرهها وسمعنا أنه نذر بالمبالغ المرتفعة لأجل أن تموت، لكن كل يوم كانت تتشبث بتلابيبه أكثر وأكثر. وفوزي (الذي كان مديراً لفرع بنك مصر بالمدينة) كان متزوجاً من عدة كرات لحم متلاصقة بغير هيئة ولا أبعاد واضحة.

كنت ترى عيّاد دائماً متكئاً على حاجز بلكونته بالدور الثاني. وجهه كان عصبياً وكان خداه الغائران مرتجفين، إما بالغضب أو بالشهوة. وعادة يكون تواً قد انتهى من ضرب امرأته أو ابنه، فتسمع أنيناً من باطن الشقة أو صراخاً طفولياً وحشرجة. من الغريب أنه كان يبدو قمة في النبل والأنسة إن قابلته في دكانة أيمن البقال بالأسفل، وهو عامة صوته أهدأ بكثير من سلوكه، ومن نعير باقي إخوته من ناحية أخرى.

أعلى عيّاد كانت الأخت الوحيدة تسكن. كانت هائلة، كما قلنا، تماماً مثل شكرالله وأخويه، ووجهها كان غليظاً ومخيفاً. لكننا كلنا تجاهلنا سيئاتها، فقد كان لها ثديان فلكيان.

بالناحية الأخرى، لصق شقة أخته، وأعلى الصيدلي الذي أجبروه (بطريقة ما) على تغيير عقد الإيجار القديم إلى آخر جديد بعد وفاة الوالد، كان يسكن لك شكرالله. لم نسعد برؤية صلعته من البلكونة يومياً، لكننا على أضعف الإيمان كنا نراه إن بَعُد النظر وساء الحظ. كنت تشاهده يختبر عقليته في الفرجة. وأنا لم أر من قبل رجلاً مثل شكرالله. كانت له العينان المدمعتان المحمرتان إياهما، تحيط بهما دوائر سوداء، وكان البصر ضعيفاً جداً، لكنه لم يكن يميل لاستعمال

نظاراته إلا في أوقات معينة. في غير ذلك، كانت أذناه تستمعان إلى النبرات في متعة عظيمة، وكان عقله المتزن المبارك يحدد من هو الشخص الذي يكلمه بدون الحاجة إلى نظارته السهلة، لأنه رجل لم يكن يحب السهل أبداً. اكتشف شكرالله أن هناك عدة 'مفاتيح' يمكنها أن تقرب لعقله المسألة بسهولة، وهذا إن دقق جيداً. كان الدقرم مثلاً أقصرنا في الطول، وله رأس ضخم واضح. ومولانا كان أسمر جداً، ودوماً كان يدفع رأسه للخلف بتلك الطريقة المميزة التي تجعل أسنانه الكبيرة الناصعة تلمع من بعيد أسفل نظاراته. وإيلي كان هائلاً، ضخم الجثة يقل عن شكرالله نفسه بضعة كيلوجرامات. أما فادي بهجت فكان أكثرنا بياضاً للبشرة ورقتها، فكانت تلتهب هكذا بسهولة من الشمس فيبدو لمن ينظر إليه، بجسمه الممتلئ ومفاصله اللينة، كأنه كتلة حية متوهجة آتية من الشمس. وأنا كنت أرافق فادي بهجت.

وأعتقد أن هذا هو ما كان يراه فعلياً ونحن راجعون ذات ظهيرة حارقة في أوائل أكتوبر.

كنت أخاف يومها أن يكلمني المشرف، لأني كنت أعلم فيم يريد أن يفعل ذلك، ولهذا فقد تأخرت مع مرافقي إلى أن اقتربنا من نهاية الفوج، ثم جرينا نحو بوابة السكن كأن أحداً يطاردنا.

لكن المشرف مسكني.

'إلى أين أنت ذاهب يا جون يا ناجح؟'

'لا شيء يا أستاذ شكرالله، لكني مستعجل بعض الشيء.'

'لا، مستعجل ماذا يا عريس؟ إني أريدك هنا معي، دقيقتين لحد أن أكلمك في موضوع معين.'

'ولكن، ألا يمكن أن تتركني الآن يا أستاذ شكرالله وأنا أرجع لك في وقت ثانٍ تكلمني فيه؟'

'لا وقت ثانٍ ولا وقت ثالث يا عريس. خلك معي هنا وقف وكن رجلاً.'

ثم أشار الأستاذ شكرالله لفادي بأن يصعد، وبعدها مال إليّ: مال إليّ شكرالله كأنه كشاف حامٍ يُسلط إلى جسمي الضعيف، ثم ضم حاجبيه وقال لي في حزم واهتمام غريبين:

'ألا تنوي زيارة أقاربك؟ عبدالله كان هنا من ساعة وسأل عنك.'

كنت أعلم أنه كاذب، فكل مرة يقول هذا وأسأل عبدالله فيقول لي أنه لم ير المشرف له أربعة أيام. لكني قلت له وأنا أتحاشى أن أنفخ:

'إن شاء الله.'

'إن شاء الله معناها ماذا؟ عاه؟ هل ستذهب الآن؟'

'إن شاء الله سأذهب في المساء إن شاء الله يا أستاذ شكرالله.'

لكن شكرالله انصدم.

'في المساء!... لما؟ أفلا تنوي أن تزورهم؟'

قلت وأنا أنفخ رغماً عني:

'سأزورهم إن شاء الله يا أستاذ شكرالله، في المساء.'

اقترب مني شكرالله أكثر وقرّب مني وجهه المستطيل الكبير مثل سطح ترابيزة، في الحقيقة الشيء الوحيد الخيّر في الذي فعله أنه حماني من الشمس ببدنه الضخم.

'هاه؟... أفلا تنوي أن تزورهم إذن؟'

'سأزورهم إن شاء الله. لكن في الليل يا أستاذ شكرالله.'

لكن مع من؟ شكرالله قال، كأنه يهديني بلطف:

'هيا، رح لهم الآن.'

'لكني يا أستاذ شكرالله قد قلت فعلاً أني سأذهب إليهم، في المساء إن شاء الله!'

فأعاد شكرالله النصيحة لي، معللاً بـ'هيا، حتى يتسنى لك أن ترجع فتأكل لك لقمتين وتنام. ها؟' لكني تمسكت بموقفي في حرقة، ولعنت اليوم وكل أيام حياتي لأن ما كنت أخاف منه حدث بالحرف.

فرجع شكرالله إلى الوراء، ومسك بذقنه، ثم نظر إليّ بحكمة رجل قديم كالديناصور وقال:

'شف يا جون يا ولدي. إني لو كنت في محلك لما انتظرت رجلاً غريباً يأتي ويحادثني في أمر لحمي ودمي...'

ومال ناحيتي، ووضع كفه العظيمة على كتفي، كأنه يحتويني بأبويته، وقال:

'وأنا رجل غريب، هاه؟'

وارتفع مرة أخرى، وصعدت صلعته للشمس العالية، ولم ينظر تجاهي وهو يستنتج:

'إذن فأنت تذهب إليهم الآن، تراهم وتطمئن على أحوالهم، وتسألهم: ''هل تريدون شيئاً؟ هل ينقصكم شيء؟'' وبعدها تجيء. ثم تذهب إليهم مرة أخرى في المساء إن أمكن، تراعيهم وتشوف أحوالهم. هذه هي القرابة، أم أنك لست بكفؤ لها؟ قديماً قال لك شخص في الأمثال: أهلك أو تهلك. أهلك أو ماذا؟ تهلك، أسمعتني، هاه؟'

ثم صمت لحظة، تذكر في خلالها أمراً مهماً أفرحه، فقال لي:

'إذا كنت أنا يا عمي لما مرضت أمي مكثت بجوارها لم أتحرك يميناً ولا شمالاً. هاه؟ فبالأولى أنت ولا مرة لديك ولا عيال ولا يحزنون. فلما لا تولي تعيش معهم الآن؟ وأنا أرسل لك وهبة ينظف لك الغرفة البحرية وينفضها لك وتمام التمام. أو عبدالله وميخائيل يسكنان في البحرية وأنت تأخذ القبلية ومعك البلكونة والسرير وألف راحة. هاه؟ وحياة الغاليين يا شيخ، لما لا تعيش معهم، هاه؟ إن الجميع هنا في الشارع يعيبون عليك أنت وقريبك الممتلئ ذاك، أقاربكما يموتون في آخر

الشارع يا عمي، وأنتما رفعتما أيديكما منهم تماماً. هل تصدق أمراً يا ولد يا جون؟ أنتما لا تستحقان عبدالله. أنتما لا تستحقانه. طيبة قلب عبدالله وسعيه وراء خدمتكما كل حين والآخر، أنتما لا تسحقانها. خلكما في الكلام الفارغ وشغل العيال. وحياة أغلى شيء عندك أنت وهو، ستأخذان أجر ذلك مضاعفاً بأضعاف، ولكن فقط انتظر أنت وهو. هه؟ ستأتي أيام يا ولد يا جون حين ستحس أنك أنت الذي كنت السبب فيما ستصير إليه. أفلا تصدقني؟'

'أصدقك طبعاً يا أستاذ شكرالله.'

'ستأتي أيام حين ستحس أنك أنت السبب في كل ما سيجرى لك. هل سمعتني جيداً؟ إذا مات عبدالله، أو رحل المزدوح، ستحملان أنتما ذنبه. وكذلك إن ماتت الولية الراقدة هناك. هاه؟ هل سمعتني؟'

تساءلت ساعتها لما لا يكلم فادي مثلما يكلمني هكذا ويقرفني؟ والآن بعد أن استقام شكرالله للمرة الأخيرة، وتنهد في راحة الرسول الذي أدى الرسالة، قال لي:

'والآن توكل إلى غرفة الذين خلفوك بدون مطرود.'

فهززت له رأسي، وتوكلت.

في هذا اليوم فعلاً كنت أنوي أن أزور أقاربي، لكن المشرف علقمها عليّ، وعلى الذين خلفوني، كما قال، فكرّهني في الزيارة من جذورها. وكنت متقلباً من البداية بين الذهاب وعدم الذهاب. والغريب أنه لم يستوقف فادي بدوره ليكلمه عن عبدالله وميخائيل. في الحقيقة، شكرالله كان له أربعة أعوام يستوقفني أنا ويكلمني أنا عن أقاربنا في آخر الشارع، كلما نط الموضوع لمخه، ولم أره يستوقف فادي ولو لمرة واحدة.

نمت بملابسي، ولم أتناول غدائي. وفي الساعة الخامسة، بقوة الله، صحوت، كأن العناية الإلهية تقول لي: رح يا جون. كان فادي نائماً بملابسه الداخلية على السرير العلوي وشخيره يرتفع، وكانت الشمس مجتهدة في شغلها قبل أن تنفذ.

رحت وغسلت لك وجهي، ثم عملت لي كوباً من الشاي، وبعدها ذهبت إلى البلكونة.

كان أول من رأيت من وقفتي هذه هو مجدي ابن صاحب العمارة المقابلة. كان مجدي هذا في الثلاثين من عمره، أسمر مثلي، وله أنف كبير، مثلي، لكن أطرافه كانت طويلة جداً كالجراد، وعيناه كانتا صغيرتين جداً كأنهما زرّان صغيران منكوتان في صفحة وجهه الضيقة. وكان قد خطب قبل هذا ثلاث مرات وأُفلت. كانت لديه بنت يحبها، بعيدة عن يده، كانت طالبة طب تسكن في شارع خلفي. كانت الفتاة تمشي مع والدتها كل عصر من أمام عمارة عمك والد مجدي، فيهيج لك مجدي. وكانت له ملامح معينة حينما يهيج: فيميل بدماغه إلى طرف واحد (أعتقد اليمين،) ويهز هذا الدماغ هزات متتابعة منغّمة مع دقات قدمي الفتاة فوق الأسفلت، ويفتح لك فمه ويسحب الهواء، كأنه بهذا يشفطها. وكان أول من لاحظ تلك الهيئة الغريبة هو مينا كرم، الشهير بـCurrent، حيث كان عاشقاً لبلكونته فيقضي بها طول النهار، وأحياناً كان يبيت بها، ولذلك فقد كان من أشدنا ملاحظة لكل ما يجري في الشارع. وهو الذي أطلق على أم مجدي المجنونة (التي كانت تبص من بلكونتها طوال اليوم وتأخذ في الإشارة والاستفهام والحديث مع أشخاص خياليين) اسم 'قوقة،' وعلى زوجها العجوز الناشف اسم 'توتي،' وهو الذي أطلق اسم 'الشمس' على قريبي عبدالله، ولكنه فشل في اختراع اسم لحالة ميخائيل الغريبة.

رأيت حنان أيضاً يومها في الأتيليه، كعادتها تنظر لمجدي ثم للسكن بنظرات شهوانية. كانت ممتلئة، وسمراء، وسمرتها كانت غير صافية بدرجة كانت، عني شخصياً، تقشعرني. فلم يكن من غير المعتاد أن ترى شعر خديها نامياً من يوم لآخر. كانت تخاف على وجهها السيء أن يتدهور بفعل الحلاوة فكانت تأخذ شعر ساعديها فقط، وهو ما كانت تقوم به بجدية شديدة بحيث كنت ترى من يوم لآخر آثار الحلاوة العنيدة عالقة بشعرة ترفض أن تنقلع. وكانت أسنانها دائماً مبقعة، هكذا

ببقع غريبة لونها أخضر أو برتقالي، لذلك فلم أكن أحب أبداً أن أجعلها تضحك، وعندما كنت ألجأ إليها لتقصّر لي بنطلون جينز أو ما شابه، كنت أصدها على الدوام فكانت تنخنق مني وتكشر، وفوق هذا كانت تأخذ مني أكثر من الباقين، أحياناً كنت أدفع لها ثلاثة وأربعة جنيهات على تقصير البنطلون مع أنها كانت تأخذ من مينا جلّاب مثلاً جنيهاً ونصف أو لم تكن تأخذ على الإطلاق، ولكني كنت أدفع راضياً.

كان لها، مع ذلك، عشاق بالسكن: وهي قاعدة آمنت بها من طول ما شفت، فلكل فولة كيّال. كان مينا جلّاب أبرزهم، وإن صرّح لنا في النهاية أنه كان يستغلها فقط لكي تخيط له ملابسه ببلاش. لكن كان هناك أيضاً بيشوي نصر، طالب الزراعة، الذي كان يتشاجر مع جلّاب على الدوام ويتهور في مداعبات جريئة مع حنان حتى اشتكته إلى الأستاذ شكرالله، وهو الذي لم يتريث لحظة فطرده. كان ميشيل جورج أيضاً يشتهيها. كان يعتبر أكبرنا في السكن على الإطلاق، وقد عاد ثالث سنة في كلية الطب كذا مرة (وكان يعتبر أقصرنا في السكن أيضاً،) فكنت تراه ساعة الصبحية لما تجيء حنان وتفتح الأتيليه: كان يترقبها بالخصوص، ويشفط له من مج نسكافيه ويحملق في مؤخرتها التي تعطيها لنا حنان لما تنحني لكي تفتح الأتيليه، ويحك فوق إفريز البلكونة في سُكْر. ومرة سألته، فضحك واشمأز بملامحه وقال مشيراً لحنان: 'ألا تشم الرائحة؟ شم شم. إنها معفنة يا ابني. لكن، لها جسم، ابن وسخة!' وهو ما كنت أستطيع موافقته فيه من حيثما وقفت.

مددت رأسي ومسحت بلكونة Current تحتي. كنت أتمنى أن يكون موجوداً لكنه لم يكن موجوداً. فبلعت ما تبقى من كوب الشاي كله، حتى التفل، ثم دخلت وارتديت حذائي، وخرجت من الغرفة.

أثناء نزولي من أعلى، كانت الدنيا هدوءاً لدرجة مريبة، فالسكن عمره ما يكون هادئاً لا في الظهيرة ولا في العصر ولا في أي وقت. لكني تسلمت الموضوع على أنه احترام الدنيا من حولي لرحلة آلامي. نزلت حتى الأرضي، حيث كان وهبة

يستعد، أسفل مني، لإنارة حجرة الإدارة، التي كانت تقع، ما بين شقة المبيت وقاعة الصلاة، في دور البدورم. حييت العامل، فرد في حيوية شديدة:

'يا مساء الفل يا بشمهندس! هيه، كيف الأخبار؟ أأمور المذاكرة سائرة؟ هيه؟'

وهبة كان العامل الوحيد وقتها بالسكن (قبل قدوم 'شَريف،' الذي سيعتبره شكرالله الابن الذي لم ينله): عجوز أعور في حوالي الستين، منفوخ البطن على نحول في باقي الجسم كأن به استسقاء (مياه بالبطن كما قال لي الكبير،) ومكروه من الغالبية العظمى في السكن لولائه الثعلبي المرن الذي الذي لا تكاد تضع يدك عليه حتى يهرب منك، أيضاً لتراخيه وكسله في أداء واجباته الوظيفية: فكان يهمل الشقق أسبوعين وثلاثة حتى تتعفن وتنبعث من مطابخها الروائح الكريهة، وإن اشتكيته للمشرف قال لك المشرف بصوته المرتفع: 'وما لك بوهبه يا عريس؟ ألا يكفيكم أنه ينظف لكم وساختكم مرة كل أسبوعين!' ولا عجب في الحقيقة، فألم يضبط المشرف بخباثته أي تضبيط!

وكان وهبة يستلقط رزقه من كل ركن ومن كل حفرة، حتى قيل أنه كان يكسب في مجمل الشهر أكثر مما كان يكسبه المشرف ذاته. فكان يحمل لك أنابيب البوتاجاز لحد شقتك مقابل نصف جنيه، حتى حُفظ أن الأنبوبة بـ'سبعة ونصف' عوضاً عن السبعة الذين تدفعهم للإدارة. أو يحمل لك حقائبك وأنت قادم من سفر، فيأخذ له جنيهاً أو جنيهين. أو كانت روحك تزهق من غرفتك بسبب امتناع تنظيفها فينظفها لك وهبة، مقابل جنيهين ونصف، فتصير مفروكة نظيفة تستطيع الحياة فيها. كان أيضاً لا يقصر في الجري وراء أي رزق يأتيه من ناحية الشارع وسكانه أيضاً. فتراه مثلاً يجري ناحية الدكتور ثروت (الصيدلي في عمارة المشرف وأهله) فيحمل له أكياس الفاكهة والخضر التي كان يشتريها هذا الأخير بعد انقطاع عمله بسبب كارثة مهنية، فكان الصيدلي يعطيه الذي فيه النصيب. أو كنت تجده ينظف له سيارته الهيونداي التي كان يعتز بها الصيدلي إلى درجة مريضة، وهنا كان الدكتور ثروت

يبحبحها عليه فيمن عليه من يوم للثاني بشلن كبير. من ناحية أخرى كان وهبه يساعد أي أحد من هنا أو من هناك من سكان الشارع وكله بمقابل أيضاً: مثلما كان يساعد الحرفيين في شقة مجدي فيأخذ يوميته كأي واحد منهم، أو مثلما قتل فأراً في شقة آخرين (أطلقنا عليها 'شقة جدو' لأن صاحبها كان رجلاً ستينياً قمة في النُبل، فكان يسمح لنا بالتلصص على بناته كيفما نحب، وأحياناً كان يفسح لنا المجال كيما نحسن النظر إذا وقف في سكتنا،) فحصل من خلال تلك العملية على عشرة جنيهات مرة واحدة. أما أكبر سمسرة كان وهبة يأكل من ورائها بجد فكانت العيش، حيث كنت تراه أول الصبح وهو خارج بشبكته العزيزة في إبطه مثل عشيقة خيالية، فيتجه نحو طابونة سرية لم يعلن عنها حتى يومنا هذا، ثم راجعاً بعد ساعة وعلى رأسه الأصلع جبل من العيش الأسمر، المخلوط بالرمل.

كان وهبة يبيعنا العيش السبعة أرغفة بخمسين قرشاً، أي كان يكسب في كل خمسين خمسة عشر قرشاً كاملة، وكان يخرج أكثر من مرة ليوفي طلبات السكن وسكان الشارع أيضاً. لكن الدقرم كان قد قتله منذ أواخر العام السابق لما وقع المضروب على طابونة مخفية في حواري رزق باشا أرشد الجميع إليها. ليلتها خلعنا خشب الأسرّة وهجمنا على الدقرم في حجرته فأيقظناه مفزوعاً ثم أخذنا نضربه على فخذيه في احتفال، وكان وهبة حاضراً لكنه لم يتمكن أبداً من الكشف عن سبب احتفالنا: إلا في اليوم التالي، لما رآنا راجعين من الكلية والعيش الطاهر النظيف الخالي من الرمل يبرق فوق رءوسنا، ودخلنا مرفوعي الرءوس ولم نحيه.

كان وهبة يرانا وقد اظلم وجهه، وتطاير الشرر من عينيه، فيقول: 'أهكذا يعني؟' ثم ابتدأ يبدل أسلوبه في المعاملة لربما نعود ونشتري منه: فأصبح يقابلنا بمودة واحترام، ويسألنا عن أحوالنا ومذاكرتنا باستمرار، وأحياناً يكون الواحد منا يذاكر في حجرته حين يقتحم عليه وهبة المكان فيرمي له سبعة أرغفة على المكتب ويبتسم قائلاً: 'حاسب لاحقاً،' بل إن 'قائمة أسعار' وهبة قد تعدلت قليلاً: فصرت إن اشتريت بجنيه، تأخذ خمسة عشرة رغيفاً، وإن ناكفت معه بربع جنيه، يهبك

أربعة أرغفة يا عمي. لكننا أثقلنا على وهبة بحيث أنه ندم ورجع خبيثاً ودنيئاً مثلما كان. فبعضنا لم يدفع ثمن العيش الذي كان يأتيه به وهبة مجاملات، ومنا من كان يفاصل بطريقة متطرفة فيطلب منه أن يبيعه بأقل من الطابونة، والبعض الآخر أخذ يسرق من العيش محللاً الموضوع: 'فارق ثمن عيش زمان.' لهذا فقد عاد وهبة منقلباً علينا مثلما كان. لكن يبدو أن فترة 'انصلاحه' تلك قد أثرت فيه تأثيراً لم يستطع التخلص منه تماماً، فقد لحظنا أن وهبة لم يتخلص من كل عاداته في حسن مقابلتنا والسؤال عن أحوالنا، بل وخدمتنا إن كان خدمات صغيرة، لكن من الخلف، كان يغرز الخوازيق.

و 'صل لنا يا عم وهبة.'

هكذا رددت على سؤال العامل الطيب الخاص بالمذاكرة. فرفع لي وهبة كفاً نجسة، مشققة هكذا ولونها غامق، وأعلنها هكذا:

'لا تخف لا تخف، ربنا معكم جميعاً.'

كأنه قديس. ثم سألني:

'هل تريد عيشاً؟ انزل خذ لك سبعة.'

'شكراً يا عم وهبة، معي بالأعلى.'

فلم يخف عن العامل تضايقه، لكنه هز رأسه وقال:

'حسناً حسناً، لا يهمك يا ولدي، قل لزميلك إن أراد.'

'حاضر يا عم وهبة.'

كنت أتزحلق ناحية الباب الخارجي للسكن لكي أتمكن من الهرب، ولهذا فما أن نطقت لك الجملة الأخيرة، حتى انطلقت نحو الخارج كالأسد. حسناً، ربما ليس كالأسد تماماً لكن مثل أي حيوان قوي، أو أي حيوان حبيس يا أخي. كان الأتيليه في مواجهتي مباشرة وكذلك كان مجدي أمامه بكرسيه السحري الصغير، وكان رمسيس، مستأجر 'شق الحيط' (المحل الضيق في قاع العمارة الملاصقة لعمارة والد مجدي،) يقف منتظراً الفرج بجسمه المهيب. كان رمسيس يبدو دائماً

كأنه ضابط شرطة متخف في زي لا يناسبه كثيراً، أو كأنه 'عزيز قوم ذُل،' أما مجدي فكان يبدو بجانبه مثل الفأر، ويبدو أنه قد أراد أن يقوي هذا الوصف فكان قد أنبت لنفسه شبه شارب نحيل أشارت أولى بوادره بحدوث كارثة منظرية.

كانت هناك سيدة محجبة سمينة تخرج من الأتيليه مع ابنتها وبيد الأخيرة كيس عليه اسم 'أتيليه مختار،' وهو الرجل الذي لم نره على الإطلاق، والذي وُضع اسمه على الأتيليه متأخراً جداً. لقد ظننا لفترة طويلة أن هذا الأتيليه ملك لفرج، الأخ الأكبر لمجدي، لأن فرج كان دائماً في الواجهة، يخيط على ماكينة تقابل ماكينة حنان.

بالمناسبة فرج كان دوماً رجلاً 'في الواجهة،' يبدو أن هذه كانت ميزته لأنه الأخ الأكبر. في أية خناقة لمجدي مع والده كنت تجد فرج أمامك، من أي ناحية تنظر تجده الأقرب إليك، لا يفعل شيئاً غالباً غير أن يعقد يديه خلف فخذيه ويرفع ذقنه كأن في استياء بليغ، وحتى عنقه كان ممطوطاً للأمام هكذا بطريقة تجعله دائماً يتقدم على من تسول له نفسه بأن يقف بحزائه. كان في الأصل موظفاً ببنك ناصر، ولسبب أكيد يرجع إلى استعداده النفسي أولاً قبل إغراء العمل الحر، فإنه ترك العمل الوظيفي ما أن فتح الأتيليه أبوابه، في الحقيقة، من قبل أن يفتح الأتيليه أبوابه: ما أن بدأت الاستعدادات لإقامة المشروع. كنت تراه هو الذي يناكف مع العمال ويقول شيلوا حطوا هنا وهناك، ومجدي لا يفعل شيئاً سوى الجلوس على كرسيه الصغير والتربص بعابرات الشارع: وهن ما أصبحن في متناول يده الآن من بعد افتتاح الأتيليه، وكان فرج هو الذي يخطب لمجدي كل مرة يفشل الأخير فيها، وتشاهده يجيء مع أهل العروسة، ويضايفهم، ويمزح مع البنت، كأنه هو العريس، وفي يوم افتتاح الأتيليه كان فرج هو من يملأ المشهد، لأنه كان يتحرك هنا وهناك بحيث لا تملك إلا أن تراه هو وحده، وحتى بعدما استقرت نفسيته وجلس أخيراً، جلس عند المدخل بماكينته.

وهذه صورة لا تتناسب أبداً مع ما كان يجري فوق، أقصد بشقته في الدور الرابع...

فقد كانت الفكرة المأخوذة عن فرج من زمان أنه لا يعاشر زوجته. ولعل العيب ليس عيبه على الإطلاق، فقد كانت له امرأة سيئة المنظر. لم نعرف اسمها أبداً: كانت سيدة نحيلة جداً كالعصا (الوحيدة التي رأيتها ينطبق عليها التشبيه السائد،) وكان لها أنف كبير كالزلطة، وكانت لا سمراء ولا بيضاء لكن لها لون كلون الزلط المتسخ أيضاً، ولقد أنجبت له ابنين وبنتاً أورثتها كل قبحها. كنا نستهزئ بزوجة فرج دوماً، ونسخر من ابتعاد زوجها عنها طوال النهار، ومما زاد الطين بلّة كان أن تزوج مهندس من مدرّسة حسناء في نفس عمارتهم بالدور الخامس: ساعتها حضرتنا امرأة فرج في كل لحظة، ورحنا نقارنها هائجين بجسد المدرسة اللدن الفائق ووجهها الهرموني المستدير. ويبدو أنها قد فهمت الجو العام، أو تماسّت معنا شعورياً، فقد أخذت لك زوجة فرج في الأيام التالية تنافس زوجة المهندس بكل طاقتها، كأنها حقاً ندّة لها. فإن علقت المدرسة في الصباح ملابس زوجها الداخلية الناصعة، وهو جالس بجوارها مزهواً كالديك، نشرت لك زوجة فرج زوجاً من كيلوتات عمك فرج الوسخة، ولا أحد أفضل من أحد. وإن علقت المدرسة ملاءة السرير الحريرية، نشرت زوجة فرج كوفرتة غريبة لونها بنفسجي، غير معصورة جيداً فكانت تنقط فوق مكان مجدي المحبب مما يجعله يصعد ويتشاجر معها. وإن خرجت المدرسة تشتري طلبات السوق بجيبة قصيرة مثيرة للغاية وجعلت تتبختر لك وتتمايل مثل الفرسة، خرجت زوجة فرج بملابس مقبضة، ثم عادت قبل الأخرى وهي تتلفت حولها بحثاً. وفي اعتقادي حالياً أن زوجة فرج قد كسبت المعركة، بطريقة ما، فقد علّمت في ذكرياتنا أكثر بكثير من المدرسة ذات الوجه الحسن والجسد الفائق، التي سرعان ما ذابت في الوجوه الحسناء والأجساد الفائقة الأخرى التي رأيناها.

مشيت بجدية حتى نهاية الناحية الأخرى من الشارع، من غير الناحية التي نرجع منها بعد انتهاء الدراسة، ثم دخلت آخر المداخل إلى اليسار. كان الماء يغرق أرضية المدخل: ماء غريب لا أعتقد أنه ماء مجار لأن ليست له رائحة، وكان الأهالي الطيبين قد رصوا بعض الحجارة في المياه لتساعد الزائر القصير المجبر الذي يبحث عن سبب للتهرب مثلي على تأدية واجبه. نططت فوق الطوب، أو الحجارة، أو أياً كانت، كالطفل، ولابد لمن كان ليراني وقتها أن يظن أني طفل حقاً، فأنا في قصر الأطفال، ولا أعتقد أني قد طلت كثيراً منذ الثانوية، كما أني ألبس دائماً مثل الأطفال: البنطلون الجينز، والتيشيرت، والكوتشي، وأرفع شعري دائماً بالجيل. مع هذا فأنا لست جميلاً أو وسيماً حتى، وفادي دائماً كان يسخر مني في هذا الشأن، هو والشبان، وكانوا يطلقون عليّ الألفاظ: مثل اللفظ المستديم الذي كانوا ينادونني به ولكني لن أذكره هنا لأني كنت أنحرق منه.

كانت عمارة غريبة، ويالها من عمارة غريبة كانت! بعد المدخل الذي تحتله مياه مريبة ليست هي مياه مجار بالتأكيد، تجد الدرجات مدفونة في التراب: تراب غريب هو الآخر يتراكم هنا بوفرة كأن هناك مغناطيس يجذبه، وكانت الجزم تترك علامات فوق التراب، لا تعيش لأكثر من ساعتين. وهذا ما لفت انتباهي وأنا أصعد، فقد رأيت علامات جزمة ميخائيل الكبيرة المستوية فوق التراب. فقفزت مندفعاً نحو بسطة الدور الثالث وأنا أفكر في ضيق.

كان هناك باب قديم، بل بالأدق، باب عتيق أمامي، من النوع الذي له شراعة. أما الباب الثاني، فكان أحدث درجة. تقدمت نحو الباب القديم وطرقت فوق قضبان الشراعة، وانتظرت. وكلها ثانية وارتفع الصوت الجامح، الحاد، الذي يشبه صياح ديك محموم (خروجاً عن سيطرة صاحبه):

'من؟ من؟'

'إنه أنا يا عم ميخائيل.'

'من بالباب؟'

ثم اهتزت البسطة كلها تحتي، واهتز المبنى كله حتى أحسست أنه سينهدم على دماغي، قبل أن ينفتح الباب عن الوجه الكبير، المستدير، المتورم لدى الفك الأيمن، الذي يلبس نظارة كبيرة تحتل كل وجهه، لعمي ميخائيل. واحتواني ميخائيل بين ذراعيه المرتخيتين وهو يصرخ:

'من؟ جون! أهلاً يا جون! ادخل، ادخل يا جون يا بابا!'

دخلت فجلست على كنبة قديمة احتلت صدر المكان. أنا لا أعلم في الحقيقة هل للمكان صدر، لكن هذا ما أفهمه من الكتب التي أقرؤها وكتبته بناءً على هذا الأساس. في مجموعه، قد يكون ميخائيل وسيماً، فشعره ناعم وبشرته بيضاء، وقامته مرتفعة، لكن كانت كرشه منتفخة كالبطيخة، بشكل لا يتناسب مع ذراعيه وساقيه الممصوصة. كان ميخائيل في السابق يمارس لعبة رياضة كمال الأجسام والجري، وقد أراني مرة له صورة 'أيام الشباب': كان يقف أمام أصص لبعض النباتات الخضراء، يجز على ضروسه في استمتاع، بينما تبرز عضلات جسمه كله أمام الكاميرا، وكانت تظهر في الصورة أسنان طبيعية جيدة، لم تكن تبرق مثل أسنانه الصناعية الآن. أما الآن فبعدما انتابته كل تلك الأمراض الغريبة، انكمشت عضلات ميخائيل، وارتخى بطنه، وبدأ ميخائيل جميعه يتحلل تدريجياً. كنت ألاحظ مدى تدهوره عاماً بعد عام، وزيارة بعد زيارة، وكانت البقع البنية العجيبة تزيد على جلده، وكان ميخائيل يحك فيها وهو جانبي ويبتسم.

'كيف حالك يا جون يا بابا؟'

'بخير. كيف حالك أنت يا عم ميخائيل؟ هل تذهب إلى الشغل؟'

'هل أعمل لك شاياً؟ هل تغديت يا جون يا بابا؟'

'نعم تغديت. إنما جئت فقط لأسلم عليكم... كيف حال عمي عبدالله؟'

فاستدار ميخائيل بسرعة وهو يقول:

'عمك عبدالله نائم، انتظر حتى أيقظه.'

فصرخت:

'لا لا! لا داعٍ، سأمكث لدقيقتين فحسب، خله نائماً.'

لكن ميخائيل اعترض:

'لا لا لا، دقيقتين ماذا يا جون يا بابا؟ ستشرب معي الشاي هنا يا حبيبي حتى يتسنى لك الرجوع واستكمال مذاكرتك.'

ثم تركني واتجه، متطوحاً هكذا كالجذع المتقلقل، ناحية طرقة ضيقة هناك إلى اليسار، وسألني من هناك:

'كم ملعقة سكر يا جون؟'

'اثنتان.'

لم يكن أمامي سوى الاستسلام، فقد كنت أعلم أن ميخائيل طالما قال 'ستشرب الشاي،' فهو يعنيها. لذلك فقد ارتخيت لك فوق الكنبة، وأخذت أفحص الشقة حولي.

لم تكن تبدلت كثيراً منذ آخر زيارة. الفوضى الحزينة الحزينة هي هي. جير الحيطان تقشر وامتلأ بالشقوق، ولطخات من أسمنت يغطي على مجاري الكهرباء. المائدة الكبيرة بالصالة مأوى للكراكيب وبقايا الأكل والأدوية. لكن حل تليفزيون جديد ملون محل الأبيض والأسود القديم. أفواه الغرف المفتوحة التي لا تُغلَق أبداً: ولمحت طرفاً من البطانية السانتامورا التي أخزنها في أول غرفة كل صيف. الغرفة الثانية كانت الغرفة التي تنام بها الأم، ولا ترى منها من الصالة سوى حائط قديم متآكل به مسحة من لون أخضر قديم. والأخيرة هي غرفة عبدالله وميخائيل، ينصدم بصرك فيها بكتف دولاب خشبي جبار. كان مكاناً حزيناً وكئيباً، وكنت في كل مرة آتيه، أرغب في الرحيل، لكني كنت أشتاق إليه مرة أخرى بعد فترة من الزمن. وهكذا كان الأمر دوماً.

'آآتش!'

ثم صرخ ميخائيل:

'بسم الصليب!'

ثم ارتفع صوته بالسؤال:

'كيف حالك يا جون يا بابا؟'

'بخير.'

'وكيف حال أبيك؟'

'بخير.'

'وأمك؟ غلبانة أمك يا جون.'

'أمي بخير أيضاً.'

ثم أتى ميخائيل يتطوح بصينية معوجة من الألومنيوم راح يتراقص عليها كوبان طويلان من شاي داكن، لا ينفذ لما خلفه. فتذكرت يوم أن أتيت بـCurrent معي للزيارة: يومها أكرمنا ميخائيل فعمل لنا شاياً ثقيلاً كالحبر، احتساه صاحبي قطرة قطرة وأمعاؤه تغلي. وكان من مضيفنا الكريم لما وجد صاحبي مكتوماً بعد الشاي مسحوب اللون أن قال له: 'لماذا تبدو مكسوفاً يا حبيبي، ألست مسيحياً؟ كلنا إخوة يا بابا، لا تكن مكسوفاً، هنا أخوك ميخائيل،' بينما أنا كنت أعض على شفتي لكيلا أسقط كوبي، الذي كنت أرشف منه على مهل، وأنفجر في الضحك.

حط ميخائيل الصينية على طرف الترابيزة الكبيرة في الصالة بعد جهاد. ثم ارتخى لك بجسمه الثقيل كله بجانبي على الكنبة. ثم ربت عليّ وسألني للمرة الثالثة منذ بداية الزيارة:

'كيف حالك يا جون يا بابا؟'

'بخير يا عم ميخائيل. كيف أخبارك أنت؟ هل تذهب إلى الشغل؟'

فقال ميخائيل بحكمة رجل عقله غير مستقر:

'إني أروح يا بابا، أو ماذا يمكنني أن أصنع هنا يا جون؟ هناك ألتقي بشخصيات محترمة، علماء يا جون! وهم لشدما يحترمونني... بل إن الدكتورة سناء لا تبدأ العمل في المعمل إلا وتسأل أين ميخائيل أين ميخائيل!... همم... وحينما أتأخر عليها أجدها جد غاضبة مني، وتسألني في ضيق: ''أهكذا يا ميخائيل!'''

ثم انحرف عن الموضوع:

'إنما ما هي تقديراتك يا جون يا بابا، هل تؤهلك للتعيين في الجامعة؟ أهم شيء عند الطالب التفوق يا جون، لا تقل هذا ابن فلان وهذا ابن علان أو هذا مسلم وأنا مسيحي: ربنا يقف مع المجتهد يا بابا، إياك والكسل يا جون!'

ثم عاد فسألني 'إنما ما هي تقديراتك يا جون يا بابا،' وهي ليست المرة الثانية ولا العشرين، فشرحت له، بصبر، أن كل تقديراتي في السنين الماضية كانت غالباً 'جيد،' وأن لا ترتيب لي على الدفعة أو شيء من هذا النوع. فإذ بميخائيل يستنكر، ويرجع إلى الوراء، كأنه في صدمة:

'ما هذا؟... أهكذا يا جون! لقد كنا نعتمد عليك في أن تشرفنا وترفع رأسنا!...'

ثم بسرعة (لأنه لا يود 'تكسير مجاديف' الطالب الشاب، إذ واجبه نحوي تشجيعي وأنا أنتظر منه هذا بلا أدنى شك طبعاً):

'إنما ما فات لا يهم يا جون، كيف حالك هذا العام؟ هل تشد حيلك؟... هل تسهر يا جون؟ آه تفضل الشاي يا بابا حتى تذهب وتستكمل مذاكرتك... هه هه، هل تنقصك القهوة يا جون؟'

وكان قد أهداني مرة، قبل عام كامل تقريباً، عبوة بن محوج كبيرة، ولوقتها كان لا يزال يسأل ويطمئن، كأنها حوت قنطاراً كاملاً من البن. فرفع لك رأسه، وضحك ببطء، فبان طقم أسنانه.

'هل تشرب من القهوة التي أعطيتها لك يا جون؟... هه هه هه... وكيف حال صديقك ابن بهجت؟... هل أعجبته القهوة يا جون؟'

ثم سألني وهو يشفط أول شفطة من الشاي:

'وكيف حال القراءة معك هذه الأيام يا جون يا بابا؟ هل تقرأ جيداً؟'

في الأحوال العادية، ومع كل الناس، غالباً ما تعني هذه الجملة حالة المذاكرة. لكني علمت أن ميخائيل كان يقصد الأمر حرفياً طبعاً. والحقيقة أن هذا الموضوع غريب.

ميخائيل دائماً كان يعطيني كتباً، في كل المجالات، وأنا لم أكن أقرؤها. ولم يكن يتعلم. كان هو يقرأ لك كثيراً جداً، وبالأخص في العلم وعن العلماء. كان مهووساً بالعلم وطوال عمره، كان يقول، كان يريد أن يكون عالماً، مثل توماس إديسون وتسلا وباستير وكل أولئك الناس. كان يقرأ لك عن أناس غريبة مثل دالتون وطومسون، ومرة قال لي أن فاراداي ليس أفضل منه، لأن فاراداي كان اسمه ميخائيل مثله، ولأنه لم يتفوق سوى بضربة حظ، لا أعلمها بالطبع وإياك أن تفكر أني سأبحث لك عنها هنا لكي أكتبها لك، لكنها، بالنسبة لضربة الحظ، هي ما كان ينتظر ميخائيل دائماً لكي تنتشله من حياته العقيمة. ميخائيل كان دائماً رجلاً 'على أهبة الاستعداد.'

ربما بسبب أنه كان، من الداخل حبّة، متديناً: فإن كان يشرد أحياناً ويقول كلاماً إلحادياً كثيراً، لكنه كان يؤمن بالله وبأنه سوف ينقذه يوماً من الأيام ويجعله شخصاً ما. كان ميخائيل قد درس في كلية طب الأسنان جامعة الأسكندرية، ولكن إخوته رفضوا مواصلة دفع مصاريفه له (على الأقل هذا ما كان يقوله لي،) كما أن زميلاً له سقاه بناً مسموماً ليلة أحد الامتحانات، كما يقول يعني، فرسب في مادة، وراء مادة، وفي الآخر فشل ورجع لبيت أبيه. وقد أرجع ميخائيل دوماً سبب سقوط أسنانه لذلك الفنجان اللعين من البن المسموم. في كل مرة كان يأكل أمامي فيها كان يشير لك لطقم أسنانه ويقول: 'أترى يا جون يا بابا؟ هذه نتيجة البن الوسخ الذي سقاه لي زميل قديم اسمه وحيد من الأسكندرية!... أترى؟ كل أسناني سقطت بسببه يا جون يا بابا. همم!'

أظن أن السبب الذي جعل ميخائيل يبذر كل ميراثه، لما مات أبوه، هو ذلك الإيمان الذي لا يهتز بأن إلهه سينقذه في يوم من الأيام. فقد كان ميخائيل يرى

لك حياته الساكنة في بيت أبيه على أنها مكان انتظار فقط للشأن الكبير الذي سيأتي، وكان يرى كل فلوسه التي ورثها هكذا 'ضربة' واحدة، على أنها مصروف مؤقت من الإله المنتَظر ليسلي به ميخائيل وقته إلى أن يأتي الفرج، مع كل تلك الكتب الهائلة طبعاً التي تعده لليوم المشهود. لم يتزوج ميخائيل، مع أنه، قبل المرض، كان متاحاً له. كان يمكن له أن يتزوج أي بنت، فقد كان معه المال والوظيفة (أمين معمل، وهي وظيفة ليست بالسيئة،) والأصل الطيب (أصدّق على ناحيتنا،) وكان وسيماً جداً أيام زمان. لكنه رغم ذلك اختار أن يتسلى مع البنات المنحلات وهن تسلين به. كان يخرج مع بنات كثيرات من الشغل أو العلم عند الله من أين، وكان يعزمهن على عزومات ضخمة في شيخ البلد أو في التكية أو في مطعم أخبار اليوم بشارع ناظم حكمت، وكان يشتري لهن هدايا كثيرة وباهظة فاستنزفن أمواله ثم قلن له في النهاية غير متفهمات دافعه على الإطلاق: 'وهل أنا لأتزوج من مجنون؟' رغم أن آخر ما كان يفكر به هو الزواج.

من ناحية أخرى ميخائيل كان يحبني، وإن لم يكن باستطاعته أن يوفر لي 'زيارات' مثلما كان يفعل عبدالله، لكنه كان يحاول أن يفعل ما يقدر عليه، وموضوع الكتب كان من ضمن أمور عديدة.

مرة مثلاً زارني ميخائيل بعد الواحدة صباحاً في يوم وطلبني. كانت ليلة باردة جداً في يناير، بعد عيد الميلاد ببعض الأيام. كنت نائماً وأيقظني وهبة. لقد تعجبت ساعتها لا لأجل استيقاظ وهبة في تلك الساعة وصعوده ليقرفني، فوهبة مستعد دائماً لأن يقرفك في أية ساعة، لكن للسبب. فنزلت لميخائيل، وكان ميخائيل مثاراً لا يكاد يملك نفسه من الإثارة. كان في سويتر رياضي ضخم جداً، له ياقة فرو، وكان يخرج يديه ويدخلهما ثانية في جيبي السويتر عدة مرات. قال لي ميخائيل: 'هيا يا جون يا حبيبي، الرجل ينتظرنا رح بدّل ملابسك وانزل لي بسرعة.' فسألته أي رجل، فقال لي أنه يتكلم عن الدكتور حسن أبو المجد. أما ذلك الدكتور حسن أبو المجد فكان مهندساً من دكاترة قسمي في الكلية، وكان يسكن في آخر

الشارع: رجل معروف في المنطقة، أصلع قصير، كان يصلي في مسجد حمزة قدام السكن كل جمعة، ودائماً ينذرنا في المحاضرات بتنبؤ مظلم، أن 'المستقبل في مصر مظلم جداً... مظلم جداً يا أولاد،' وكانت لديه سيارة مرسيدس قديمة، كان يبدو بجانبها كالقزم. بصراحة انخضضت، وتساءلت ترى ما الذي لمَّ الشامي على المغربي؟ ثم اتضح أن سبب كل ذلك هو أن ميخائيل كان قد اكتشف ليلتها، فجأة على ما أظن، أنه على علاقة (ما) بمحمد أبو المجد الأخ الأصغر للدكتور حسن أبو المجد، لأن الأول طبيب صيدلي وكان يزور مستوصف الزهراء الذي كان يعمل به ميخائيل فترات، فأصبح ميخائيل راغباً في تعريف الدكتور حسن بي بسرعة وبلا أدنى تأخير. فما تزحلقت منه إلا بأن أعلمته، كذباً، بأن الدكتور حسن أبو المجد إنما هو يدرِّس في قسم آخر غير قسمي، وأنه 'لا يحسن ولا يساعد أحداً يا عم ميخائيل.' فتكهرب ميخائيل، وتنطنط، وأخذ يكرر وهو يدخل يديه في جيبيه عدة مرات في عصبية: *'وليكن! سيأخذ اسمك ويعطيه لأحد دكاترة قسمك!'* وكان عمك وهبة مدسوساً في المكان بقدرة قادر فاستلم ميخائيل. رمي لي بنظرة خبيثة لها معناها وهو يضحك، ثم شد ميخائيل ناحية الخارج وهو يقول له: 'تعال يا ميخائيل، أنا سأريحك. ماذا تريد؟ تريد أن يذهب معك قريبك إلى الدكتور؟ وما له؟ كله بأوانه. الوقت الآن ليل وأخوك عبدالله يمضي إلى سريره مبكراً. رح أنت الآن وخذ لك دشاً محترماً وغداً يمضي معك قريبك كما تشاء... لا لا، سأحجزه لك بنفسي إلى حين ترجع، ولن نجعله يخرج خارج البيت. هه هه. وتصبح على خير. *ولتسلم لي على عبدالله يا ميخائيل!'* ثم سك وهبة الباب الأسود بالقفل الأصفر الكبير، مقرباً منه عينه العوراء، وبعدها رجع إليّ يدق على السيراميك الجديد (الذي كان شكرالله قد هبر له فيه هبرة محترمة من فلوس السكن) كالكتاكيت، وقال لي وهو يبتسم ابتسامة بيّنت أسنانه الملطخة بآثار دخان قديم: 'وأي خدمة يا بشمهندس!' فتركته دون أن أعطيه مليماً.

وفي اليوم التالي، أو لعله اليوم الذي يلي التالي لا أتذكر، أوقفني الدكتور حسن أبو المجد في المحاضرة وأخذ يبص فيّ بصة طويلة. ثم جعلني أجلس.

كنت أنتظر الفرج بدوري وأنا أستمع إلي ميخائيل وهو يحكي عن عم فادي بهجت.

'كان صموئيل يسكن خلفنا. هاه هاه هاه... وكان زملاؤه يسرقون منه الشاي والسكر. هه هه. ويوماً وضع لهم الملح مكان السكر. . . .'

وبعد حوالي مائة دقيقة، وقفت واستأذنت من عمي ميخائيل فيما يشبه الالتماس.

'أستأذن أنا الآن يا عم ميخائيل؟ أنت تعلم أن ظروف الطلبة والامتحانات و...'

ولكني صمتّ، لأن صوتاً آخر قاطعني من هناك، وكما انلعنت دائماً منذ بداية العام الأول، في فرحة مذهلة، وعبط كعبط الأطفال:

'يا ربي! من هذا؟ جون!'

ثم قفز عليّ عبدالله وأكلني أكلاً بالقبلات والأحضان. كان يعزني هو الآخر، الرجل. ثم وضع كفه الممتلئة على كتفي، وتبسم لي، فشممت رائحة أنفاسه العطرة التي قلت عنها دائماً أنها ثمرة مرض كامن ما، وسألني عبدالله:

'لماذا لم نكن نراك يا جون؟'

'آهه، ظروف الامتحانات.'

بالطبع أية امتحانات هذه التي توجد في بداية العام؟ لكني لم أخف أن يكشفني عبدالله، وأن يسألني لماذا هو ثالث أسبوع في الدراسة بينما هي أول زيارة، فقد كان مجنوناً.

كان عامة أقصر من أخيه: رجل برميلي الشكل، له بطن مشدود من كبس الشحوم، بشرته بيضاء محمرة من العز، وكان يجز شعر رأسه جزاً (ذلك الشعر الرمادي الذي به أثر من شقرة قديمة،) فكان خطه يصنع قوساً كاملاً فوق عينيه

الخضراوين. وكان يعلق في كل مكان من جسمه ذهباً: إن نظرت حول رقبته تجد ذهباً، وفي أصابع يديه ذهب، وفي فمه تجد أسناناً من ذهب، وحتى لو بحثت بين فخذيه كنت لتجد ذهباً، الذهب كان في كل مكان. احتفل بي عبدالله جداً، بشكل أناني مؤقتاً امتداد فترة حبستي معهم لساعة أخرى على الأقل. كان الليل قد حل أخيراً، وكأن القدر يقول لي أني قد دخلت مرحلة جديدة فيجب أن أكملها. وجلست أنا بينما هرول عبدالله حواليه يبحث عن كرسي، ثم جاء بواحد من آخر الترابيزة دقه أمامي في البلاط دقاً.

'إذن فهو آخر عام يا بشمهندس، ها؟'

'إن شاء الله.'

فجلس ثم سألني مباعداً بين ساقيه كالضفدع:

'وماذا تنوي التخصص؟ مدني؟ أفضل قسم عندكم هو القسم المدني.'

أفهمت عمي عبدالله، بلطف، أني بالفعل في القسم المدني، لي أكثر من ثلاثة أعوام، ولم أستغرب السؤال أبداً، فقد تعودته من عبدالله عند بداية كل عام.

كانت هناك مظاهر كثيرة لتشابه الأخوين، نظراً لطبيعة أمراضهما المتقاربة. فخذ عندك مثلاً هذا التكرار المثير للأعصاب للأسئلة، ومعاودة الاستفسار، وسرعة الفيضان العاطفي ثم سرعة انكساره. لكن كان كل واحد منهما مميزاً عن الآخر بعدة أشياء.

ميخائيل كان لديه مثلاً هذا التطوح الغريب، الذي فشل كبار جهابزة الطب في كشف سره. لم يكن ميخائيل يمشي في خط مستقيم، ميخائيل لا يعرف الاستقامة في أي شيء، وكان دائماً يحلو له أن يسير على خط متعرج في الشارع أو في البيت، وإن وقف محله تجده يميل شمالاً ويميناً كالغصن المتمايل تحت عاصفة. هذا التطوح كان سبب أن نعته Current بالبندول، لكنه وجد أن الاسم فصيح إلى حد زائد ساعتها، أو أنه لا يرقى لمستواه في التنكيت والتعليقات، فتنازل عنه وظل يفكر في اسم آخر لم يأت.

وكان من نتائج هذا التطوح، في مرة، أني انحشرت في موقف نادر لم أوضع فيه طوال عمري. كانت الأم العجوز قد أعطتني مائة جنيه قبلها بأيام فحسب، مما جعلني أفكر بأنها قد خدعتني لكي تحشرني في ذلك الموقف. رجتني أن أذهب مع ميخائيل للكشف عند الدكتور محمود رأفت، طبيب الأمراض النفسية والعصبية المعروف، بجوار بيع المصنوعات، وذلك لأجل التطوح الزائد، ولم تقف عند حد معاونتي، بل طلبت من عبدالله أن يقوم بتمثيل دور المجنون (دور قال عبدالله أنه لا يستطيع أن يؤديه،) وأن يتظاهر بأنه هو المريض وأن ميخائيل الذاهب به إلى الدكتور. فذهبنا بالفعل في تاكسي مخصوص، دفعت ثمنه بنفسي لأن الأم كانت قد استأمنتني وحدي على فلوس المشوار، وهبطنا أمام العمارة التي بها العيادة. وكأن عبدالله قد تذكر فجأة دوره، فقد ابتدأ لك الصراخ والولولة وراح يشوح لك بيديه أمام الناس، كأن جزءه من المهمة كان يتضمن أن يوضح للعابرين أنه مجنون. ويبدو أن عيادة الدكتور محمود رأفت كانت عيادة مجهزة بمعنى الكلمة، لأن بمجرد أن فعل عبدالله ذلك، حتى اندفع من مدخل العمارة ثلاثة رجال أشداء اتجهوا نحو عبدالله مباشرة، ومسكوه وكتّفوه، ثم حملوه للأعلى. صعدت مع ميخائيل خلف عبدالله، الذي ضاعف من صراخه وطالت شتائمه كل الخلق (في ظني الآن أنه إما تقمص دوره جداً حتى آمن بأنه قد جُن، ثانية، أو أنه ارتاب في أن نكون نحن قد رتبنا له فخاً.) كانت مهمتي عسيرة بالفعل، لأنه كان يتحتم عليّ أن أنقل للدكتور، وللممرض الذي يأخذ ثمن الكشف من قبله، أن الكشف لميخائيل وليس لعبدالله، الذي يقوم بكل تلك الضجة. لكني استطعت ذلك على أي حال عن طريق همسة مع الممرض، ولقد أمال لي الرجل أذنه بتلقائية كأنه كان متعوداً على مثل تلك المؤامرات. المهم، دخلت لك مع ميخائيل بينما ظل عبدالله بالخارج محكوماً بالرجال الأشداء، وأقنعنا، أنا والممرض، ميخائيل بأنه داخل 'ليشرح للدكتور حالة أخيه' فحسب، ولقد صدَّق. كان مكتب الطبيب آية في الجمال والأبهة، ولقد أثار الطبيب نفسه، بسمنته وهيبته، انشراح ميخائيل وسعادته، فصافحه بقوة شديدة، وجلس وجلست

أنا أمام ميخائيل، وقال ميخائيل بلهجته الغريبة غير المتزنة في طول مقاطعها ولا في صوتياتها، مستخدماً صيغة الجمع دائماً: 'صدقني يا دكتور نحن نعلم كم سنتعبك معنا في أمر هذا الولد. ولكن يا دكتور هذا الولد لا رجاء منه! وكم من مرة، كم من مرة يا دكتور، حاولت أن ''أصلح له مخه، '' فيسمعني أرذل الشتائم وأقذر الألفاظ يا دكتور!... همم... دوماً هكذا الدنيا يا دكتور: خير تعمل، شر تلقى. ولكن ما العمل يا دكتور؟ أخونا ويجب أن نحتمله، وصليب ولابد أن نشيله!' خبط عبدالله ساعتها الباب برأسه، فأكمل ميخائيل منحرفاً ومبتهجاً وهو يرجع للوراء: 'أنت يا دكتور رجل علم. أليس كذلك؟... هاه هاه هاه. وأنا كذلك رجل علم!... إني أعمل أمين معمل في مستوصف الزهراء آخر البلد يا دكتور. مع الدكتورة سناء مقبول والدكتور سامي عبد السيد يا دكتور. هاه هاه هاه. هل تعرفهما يا دكتور؟' أخذ الطبيب يهز رأسه، ويتابع ميخائيل بدقة شديدة، ثم قاطعه: 'وهل لديكما أخ أو أخت أم تعيشان وحدكما؟' فحينئذ بكى ميخائيل فجأة: 'إن لدينا ربنا يا دكتور! [قال له الدكتور 'ونعم بالله'] ثم ماما يا دكتور! ماما سيدة عجوز، جداً يا دكتور، وقد تبولت دماً من أسبوع يا دكتور. ما سبب الدم في البول يا دكتور؟ ولقد أخذناها عند الدكتور مجدي ميلاد: الرجل جيراننا من زمان، وأمه ست بركة، جداً جداً يا دكتور! ولم يرض بأن يأخذ كشفاً. . . .' بعد دقائق كان الطبيب قد شرد عن ميخائيل رغماً عنه، وهو ينظر ناحية الباب الذي يحتجز عبدالله خارجاً، وهو يتساءل ما بين كل لحظة والأخرى، لا شك، عن حالة ذلك المركون بالخارج الذي لا يتوقف عن الصراخ والولولة. ثم طالني أنا أيضاً بنظراته: ولا أنسى عينيه حتى هذه اللحظة: كانتا ضيقتين حادتين كلهما ارتياب، في هذا الثالث بدوره!

أما عبدالله ('المركون'،) فقد كان يختلف عن ذلك.

لم يكن عبدالله ينام الليل على الإطلاق. كان أخوه وكانت أمه دائماً يشتكيان إليّ أنه يتنقل من مكان إلى مكان، بالشقة في الليل، خفيفاً كالقط أو كالحرامي، ويُرى شبحه رائحاً راجعاً بدون معنى. وكان يحب أن يعمل لنفسه عدة

أكواب من الشاي أو الكركديه بالليل، يجلس على الكنبة أو يقف بركبتيه عليها إلى الشباك ويقول: 'أين...؟ تت، ' ويستغرب. وإن رقد في النهاية فإنه يستلقي بجانب أخيه على السرير، يضع كفه تحت مؤخرة رأسه الشائك ويأخذ في الإشارة والدوران وعمل الأشكال بيده الأخرى، وهو منشغل في الجمع والطرح والقسمة وحل المشكلات.

وفي الصباح كان يقوم، أول ما يخبط شيش شباك الأستاذ ملقي (جارهم في العمارة المقابلة) الحائط، يحوم في الشوارع بدون هدف، ويضرب كفيه ببعضهما وهو يضحك، أو يشير لنفسه، ويحادث أناساً خياليين، ثم يسب الحكومة ويشتم. وكان يُشاهَد بالساعات متكلماً في كابينة مينا تل على ناصية الشارع العمومي، يحمى ويزعق ويثور، ويجادل بعصبية وهو يقول: 'الدفتر!... لا!... لقد قلت لسيدنا!...' وأحياناً كان يُرى راكباً دراجة نصر قديمة، العلم من عند الله من أين أتى بها، رابطاً في كرسيها الخلفي كشكولاً أو كشكولين، وهو يميل برأسه يمنة ويسرة، كأنه دفة سفينة. فكان روماني (مستأجر شق الحيط السابق) يهتف إليه بالتحية كلما مر فلم يكن عبدالله يلحظه، فينظر إليّ روماني بعدها وعلى فمه ابتسامة كبيرة لها معنى واحد.

وهي نفس الابتسامة التي كان وهبة يهبني إياها لما يصعد إلى غرفتي وقت أن يكون عبدالله موجوداً في البيت. عبدالله كان كثير الزيارات للبيت في أثناء جنونه، لكنه لم يكن يأتي لأجلي، إنما لأجل أن يمكث مع وهبة، أو شكرالله، أو أي ثعبان آخر. عبدالله كان طيب القلب، وكان يعتبر وهبة صديقه الصدوق، وشكرالله بمثابة الأخ الذي عوضه الله به عن ميخائيل المجرم. وكان كثيراً ما يحدثني عن أعمال ميخائيل الفاسقة في أثناء نوباته تلك: كان يميل لأن يجتذبني ناحية شق الحيط ويبدأ الكلام بشتيمة عامة للحكام الحاليين والأسبقين، ثم ينحدر فجأة من الشئون العليا إلى: 'ولكني سأتزوج! لن أمكث هنا!' ويشرب من زجاجة مياه غازية وهو محدق فيما أمامه في صمت. 'ذلك الأحمق البهيم هناك أنفق كل فلوسه على

البنات!' ويهمس لي (أو يظن أنه يفعل) في تهويل: 'الولد ملموم على شلة فاجرة. الولد ابن كلب! وها أنا قد قلت يا حبيبي، والأيام ستكشف.' وفي ذلك كله يكون متولي شق الحيط، أياً كان، مستنداً بجوارنا إلى جدار المحل، ومجدي جالساً، كما سيظل إلى الأبد، على كرسيه في انتظار اليمامة، وحنان قد مدت عنقها تتابع ولسانها يلحس حواف فمها، والطلبة يتابعون كلهم من البلكونات.

كان عبدالله حينما يمكث مع وهبة يقوم بأعمال البيت كأنه موظف به. كان ينادي على المطلوبين للاستقبال أو للتليفون، ينادي في نبرات صارخة تهز المكان، وكنت تلمحه أحياناً (بقلّة وقتها) مع وهبة يساعده في حملة العيش اليومية، وكان يجلس مع شكرالله بالساعات، والأخير يراه كتسلية وأداة لتضييع الوقت (العظيم في فراغه والحق يقال.) لهذا فقد تسلى به الطلبة أيضاً، وكانوا شائقين دائماً لحضوره وحتى لمجرد رؤيته، فقد كانت رؤيته تعطيهم سلاماً داخلياً لأنه مجنون. وعندما كانوا يرونه معي عند شق الحيط كنت تجد أحدهم يخرج بتعبير مثل: 'انظروا سنقر مع الكائن الفضائي!' ومن هنا يتحول 'الكائن الفضائي' إلى 'زحل،' فـ'المشترى،' فـ'الشمس.'

أحب أن أقول أني لم أمكث كثيراً عند عبدالله وميخائيل بعد أن جاء عبدالله، والسبب ليس أني استطعت الهروب أو شيء مثل هذا، لكن لأن الأخوين راحا بعد دقائق فحسب يتنافسان على طردي. وذلك لـ' تستكمل مذاكرتك يا جون يا بابا،' ولـ'ألا تضيع وقتك يا بشمهندس.' وبعد الكثير من 'شد حيلك يا بابا،' و'مع السلامة مع السلامة أنت الوقت،' حدثني عبدالله بصوت منخفض خارج الباب:

'تعال إليّ في مرة أخرى قبل الظهر (لا لا، سآتيك أنا!) لأن أمراً خطيراً أود أن أناقشه معك.'

فبعدها بصخب وتمثيلية وهو يلوح رقبته للداخل ويشير بيده لي بالمغادرة (كأنه ينقذني من شيء ما):

'ومع السلامة يا جون! وسلم لي على أبيك يا جون!'

هذا قبل أن يسك الباب بقوة في وجهي.

نزلت الدرجات المغبرة سعيداً على ذلك لأني قد تحررت من الزيارة. هبطت من قدام الدور الثاني، حيث يوجد الأستاذ لوقا، ثم من أمام شقة الدور الأرضي التي سكنت بها سيدة محجبة جميلة، ثم تنطنطت فوق الطوب المحطوط في المياه الراشحة من مكانها العجيب، واحتواني الشارع الحر، الشارع الذي ليس به عبدالله أو ميخائيل.

لكني رجعت البيت مخنوقاً لأني أضعت النهار كله، وأضعت المساء أيضاً. لم أفعل شيئاً تقريباً: تسكعت في غرفة ميخائيل رفعت وخرّبت الكاسيت الخاص به، أكلت قطعة بوفتيك لفادي من الثلاجة، غسلت قدميّ، وحاولت أن أنام. لكني لم أنم، لأني أخذت أفكر في عبدالله وميخائيل، ولأن الصلاة كانت بعد مدة قصيرة. لم يكن فادي موجوداً وخمنت أنه خرج ليتفسح مع الدقرم وباقي العيال. لم تكن الأمور دوماً على هذه الحال: في أغلب السنين الماضية كنت أخرج مع العيال دائماً ولم أكن أهتم بأقاربي كثيراً، لكن شكرالله أفحمه الله كان هو من زقني إلى هذه الورطة.

بقيت فوق سريري حتى اقتربت الساعة من العاشرة والنصف. حينئذ، قفزت من فوق السرير ولبست شبشبي واتجهت للصلاة بسرعة قبل أن ينعر لي شكرالله في السماعة:

'الرجاء النزول إلى قاعة الصلاة... الرجاء النزول إلى قاعة الصلاة'

مثل بغل ماتت له أمه.

يا أخي إلى هذا اليوم أسأل فأجد غالبية بيوت الطلبة محترمة. فلم أسمع عن بيت يجبرون فيه الطلبة على الصلاة رغماً عنهم، ولا عن مشرف يبتزك بغرامات عجيبة، ولا عن عامل ابن حرام مثل وهبة، لم أجد بيتاً مثل بيت الأنبا تادرس. فخذ

عندك مثلاً الصلاة: كان أغلبنا من أسر متدينة وكنا نحب أن نصلي قبل أن ندخل البيت، لكن، والشكرالله، فإن عمك شكرالله كان قد تربص بهذه المسألة منذ زمن، حتى قلب لك من تلك الدقائق القليلة التي كان الواحد منا يشتاق لأن يقضيها مع الله، إلى عقاب أبدي وتنغيص لكل من سولت له نفسه حب الصلاة.

فحالما يتم النداء (وفي بعض الأحيان كان المشرف الماهر يمن على أحد أتباعه بالنداء بدلاً منه لكي يوهمنا بعدم حضوره،) كنت تجد المشرف قد مسك لك بطرف جلبابه، فصعد لك السلالم وسط فيضان المصلين النازلين، ثم اقتحم لك الشقق بتنبيهه الذي هو أقرب للوعيد:

'الصلاة يا عريس! الصلاة يا عرسان!'

ومثيراً الرعب في قلوب المتسترين بالأبواب المقفولة:

'افتح من عندك يا عريس!'

وأحياناً قد يكون أحدهم مريضاً أو منهوكاً فيوقظه، ثم يقول له في تلذذ: 'لماذا لم تنزل للصلاة يا عريس؟ غرامة خمسة جنيهات.' فلا يتمالك الفتى (وغالباً يكون من طلبة السنة الأولى) إلا أن ينقده، حتى يرجع للنوم، هذا إن رجع له النوم.

مرة، حدث هذا في أثناء عامي الثالث في البيت، أي وأنا في ثانية هندسة، قام فتى من بورسعيد اسمه ممدوح تقاوي بعمل مؤامرة ضد شكرالله وألاعيبه. لم تكن مؤامرة ضخمة، لكنها كانت تقتضي عدم مطاوعة المشرف في أوامره، وبالتالي الصلاة في الغرف خلسة دون النزول لقاعة الصلاة تحت، ولكي لا تتم ملاحظة الأمر اتفق أن تتبادل مجموعات المتهربين من الصلاة فمن يصلون في غرفهم اليوم ينزلون الغد والعكس. عن نفسي، وفادي أيضاً، لم أتجاسر أن أشاركهم،

وحسناً فعلت: لأن المشرف أذاقهم (يجدر بي أن أقول أذاقنا جميعاً، لأن ما نتج عن ذلك عمَّ على البيت كله) العذاب والإحباط وطاردهم، وفعل ما جعلهم يلعنون أنفسهم واليوم والساعة التي وافقوا فيها على مطاوعة ممدوح المجنون.

فقد كان من المشرف الحاذق أنه إذ ابتدأ يلاحظ اختلافاً بين عدد المصلين يومياً، والعدد الكلي المتواجد في السكن (بعد طرح المسافرين، وشكرالله يقيد بياناته بدقة في سجل غلافه أسود،) أنه مثّل كأن الحيلة قد انطوت عليه لأيام. حتى جاء في يوم وقفل علينا باب قاعة الصلاة وهو يصرخ: *"المفاتيح يا وهبة!"* فأسرع العامل الأمين يمده بمفاتيح البيت مفتاحاً مفتاحاً (حيث أن وهبة يحفظ مفاتيح البيت كلها في علبة بلاستيكية بيضاء.) فصعد بعدها شكرالله، يتبعه وهبة كالعقرب المنزلي الأليف، يفتح غرف البيت كلها غرفة غرفة والمتعة تغرقه. وبعد الكثير من الصياح، والزعيق والاحتجاج ولطم الأبواب، علقموا الصلاة علينا كمصلين، نزل، وإيراد الليلة كلها يستقر في جيبه في دعة. كانت أكبر حملة مداهمة قام بها في تاريخه، ويقال أنه جمع في خلال تلك الدقائق القليلة أكثر من ثمانين جنيهاً كاملة، وكان من نتائجها أيضاً أن رجله قد أخذت على دخول الغرف، في غير وجود أصحابها.

لهذا كله فمهما كان الواحد متديناً، ويحب الصلاة من أعماق قلبه وينتظرها كل يوم، ومهما كنت تجد نفسك تجري جرياً نحو قاعة الصلاة كل ليلة وحدك، ومهما كنت حتى تفضّل وجودك في قاعة الصلاة عن وجودك في حضن والدتك، فإنك لا تملك أمام تصرفات شكرالله إلا أن تحس أنك ما تنزل للصلاة، حقاً، إلا رغماً عن ميتين أهلك.

تزحلقت إلى داخل قاعة الصلاة وسط الناس حتى لا يراني شكرالله. قبل الصلاة وبعد الصلاة يكون زحام شديد وهو ما اعتمدت عليه أن يخفيني عن عيني شكرالله، وعن عين وهبة الوحيدة، ثم عن مداعبات Current وعماد أغناطيوس بعد الصلاة: إذ كانت لهما عادة، مع بعض الظرفاء الآخرين، أن يستلماني بالضرب

والدغدغة ولطم أذنيّ بعد كل صلاة، مع أنهما كانا قد حولا اهتمامهما قبل قريب إلى فتى صغير جداً من بهجورة يدعى نسكافيه. قادنا بيتر القمص باخوميوس في الصلاة، وهو فتى سمين، مترهل، أسمر، غلث، أسميناه 'حمص ابن القمص،' ووزع قطع الساعة مارك غبريال، طالب الطب الذي لا يكلم إلا طلبة الطب. كان بعض الطلبة قد وصلوا متأخرين ولحقوا بنا في مؤخرة القاعة، منهم فادي والدقرم وميشيل جورج، ووقفوا متمايلين ظهورهم إلى الحائط يتشاكسون ويمزحون دون اعتبار الصلاة. وبعد صلاة النوم، هي صلاة السكن كل ليلة طبعاً، وبعد قراءة السنكسار والإنجيل، وبعد أن قام شاب من دشنا اسمه عاطف فخري بالاعتراف أمامنا أنه شاهد أفلاماً إباحية في أحد محلات النت بالنهار (كان أحدهم قد هدده بأنه إن لم يعترف قدامنا كلنا أنه سيفضحه،) خرجت متستراً بالأبدان الكبيرة من حولي. لا أعلم هل ذكرت أم لا أني قصير. أعتقد أني ذكرت هذا فعلاً، وبناءً عليه لم أخش أن يلقطني شكرالله أو أي فرد من عصابته وأنا خارج. لكن ما العمل؟ كيف لي أن أحسب حساب عين وهبة العوراء؟ لقد لقطني العامل الفاجر من بين مائة طالب وشدني من كمي بدقة متناهية، مع أني كنت بعيداً عنه تماماً، ومع أنه، أقسم بالله، كان يواجهني بناحية عينه التالفة.

لم يكلمني وهبة، ولم أكلمه. قادني نحو غرفة الإدارة كالمحكوم عليه بالإعدام. وبعد أن دخلت، أغلق من خلفي الباب. كان شكرالله مسترخياً فوق كنبة إفرنجية ولا هارون الرشيدي، ويؤنسه 'الدكتور عجايبي،' الذي هو بريء طاهر من تلك المهنة حتماً، وهو رجل يكبره في السن، قصير نحيف، يخصّل شعراً ناعماً أسود بمشط واسع، كان يقال أن له قرابة بالأسقف. وكان أمامهما طالبان يناكفان من أجل استعادة غرامة تأخير. راح أحد الطالبين (فتى طويل كالعامود) يلمح إلى حادثة مشابهة مع 'آخرين،' لكنها مخالفة في 'الحكم،' إذ لم يدفع أولئك الآخرون مليماً، ثم راح لك يحذر، ويهدد شكرالله بالمتغطي (كان أبوه غنياً جداً، من عائلة كبيرة في الفيوم،) بينما سكت صاحبه ونظر إليه في قلق. وظل الأستاذ شكرالله

هادئاً على غير العادة، بل إنه تظاهر كأن ليس بالكلمات الساخنة التي تخرج من فم الفتى الطويل كالحمم شيء. وكلها دقيقة ووجد الفتى أنه سيفقد أعصابه على آخرها، فشد الباب وخرج كالصاروخ، وصاحبه يتبعه. ساعتها ضحك شكرالله منسجماً، وابتسم معه 'الدكتور عجايبي.'

استجوبني شكرالله، تفصيلياً، عن أدق دقائق الزيارة التي قمت بها لأقاربي، وكيف كانت أحوالهم، وما أمر عقولهم، وكيف كان شكلهم، وبم أجابوني على أقل كلمة، وماذا أعطوني في النهاية. بالأخص ماذا أعطوني في النهاية. شكرالله كان مثل الأستاذ ملقي، الجار في العمارة المقابلة لعمارة عبدالله وميخائيل، كان مؤمناً صادقاً بأني كنت أرافق أقاربي فقط لاستغلالهم، لكنه لم يفعل مثل الأستاذ ملقي الذي كان يهاجمني بضراوة كلما شافني ويكشر في وجهي، شكرالله كان يمتعه أن يستفزني في هذه النقطة بالذات إذا أراد أن يعمل له دماغ.

كان رجلاً داهية: في حياتي كلها لم أقابل على الإطلاق من هو مثل شكرالله. كان صاحب مزاج، يحب اللعب والتحريات، ويسأل كثيراً ولا يجيب لك على أصغرها سؤال. وكان يحلو له أحياناً أن يهب علينا من سطح عمارته بعد أنصاف الليالي، فيهاجم المتحدثين بالليل ويقول: 'صوتكم أيقظ النيام يا عرسان!' فلا ينحل من عندك حتى تمتد السهرة لنصف ساعة أخرى على أقل تقدير. وكان يحب أن يفخر كثيراً بعلاقته بحمدي غفير المباحث فيقول: 'لولا حمدي والله ولولاي، لزاركم الشرطة كل يومين مرة!' أو: 'أنا والله قلت لحمدي أنه إن أراد في التفتيش فليجئ. ولكنه قبل رأسي وقال: ''وهل أنا لأخسر هذا النصراني الزين؟''' والحق أن وجوده في السكن (من هذه الناحية فقط) كانت له بعض الإفادة: فكان الأكثر تنظيماً بين كل المشرفين، ويأخذ من كل طالب أول كل سنة خمس نسخ من صور البطاقة، ويراجع استمارات الحجز بنفسه، ويعني بوضوح الخط والأرقام، فيقدم أوراقه آخر كل شيء إلى الشرطة كاملة نظيفة وافية، وإن وُجدت أقل بادرة عدم رضا، كان

يجري وراءها على حد زعمه، حتى يسمعها في النهاية ممطوطة التي تشرح صدره كل عام: 'تمام يا شكرالله.'

كان يحب أن يعمل له دماغ خاصة في الليالي التي يطول فيها في السكن، فكان يلتقط له أي طالب يقزقزه شويا حتى ينسجم. ساعتها، كنت تراه ينزل قدميه الضخمتين لتستقرا في شبشبه الخروجي الأسود، فيرجع إلى بيته، حيث يجد امرأته قد حضرت له الطبيخ والجبن القديم والمخللات، فيأكل ثم ينام كالطفل السعيد. لذلك فقد علمت وظيفتي في سهرة الليلة: كنت أنا قزقزته هذا المساء.

بعد أن وافيته بتفاصيل الزيارة النووية التي قمت بها لأقاربي (لا أعلم في الحقيقة لم كان الجميع لعابه يسيل لسماع أي شيء عن عبدالله وميخائيل والأم: في تقديري كانت تلك الأمور بالنسبة لأشخاص مثل شكرالله أو وهبة أو عجايبي أو Current أو حمص، بمثابة 'آخر الأنباء،' وكانوا يترقبونها باهتمام شديد لا تنقصه الجدية،) صمت شكرالله شويا، يزن المواضيع في دماغه، ثم أخذ يتكلم لك في أمور غريبة. كأن يزوج عبدالله مثلاً (وهي ليست أول مرة، وكل مرة يختار له عروسة مختلفة،) وينقل ميخائيل إلى بني سويف عند أخيه الكبير عادل، والأم إلى دار مسنين في بلدنا. وعن هذه النقطة الأخيرة قال وعاد وزاد، وهو يتحدث ببطء، وينظر إلينا من كل وقت للآخر ليرى إن كنا فهمنا أم لا:

'لتدعني أنا أحادث سيدنا في الأمر... إن لديه داراً مريحة صغيرة بجوار الكنيسة في بلدكم... وكل ما عليها فعله، الحاجة، هو أن: تتناول كل أحد، وتسمع العظة من مكانها... وحين ينوي لها الكريم، تكون الجبانة تبعكم، و ألف راحة... ألست أنت معي يا عم محب أيضاً أم ماذا؟'

لم أعلم من هو محب. لكن عجايبي كان يقاطعه من وقت لآخر موافقاً أو معترضاً ثم مقتنعاً لوحده. كان يمتلك نبرة مبحوحة كتلك التي تميز كبار السن إذ يبلغون سن 'النصح والإرشاد،' وعليه، فإنه ما كان يفوت فرصة إلا وتجده قد ظهر من باطن الأرض، يحاول أن يمد الطلاب بأكبر كم ممكن، أو غير ممكن، من

النصائح والتعليمات. وكان يتكلم بأسلوب أبوي فائض بالحنان، وكنت تراه دوماً عاقداً كفيه خلفه متجولاً في الشارع أو المنطقة، بحثاً عن المشاكل. أخذ لك عمك عجايبي يسألني عن أمور المذاكرة، ووضعي في الغرفة هل هو مريح أم لا، وزميلي في الغرفة هل هو حسن أم يغيره لي، والضوضاء وقت النوم، والإضاءة، والمروحة، وحالة الأبواب والشبابيك، وكنت أنا أحاول أقناعه، بكل الوسائل الممكنة، أن الأمور تسير على ما يرام وأكثر. لكنه لم يكن يقتنع. وظل يضغط على يدي ويقول: 'صارحني فقط صارحني، أنا أعلم ما ببالك،' فورّم دماغي. ثم بدأ لك عمك شكرالله في سرد قصته الأبدية التي لا يمل ترديدها حتى يوم القيامة، عن أن سيدنا بعثه مرة بأوراق إلى الكاتدرائية، وأنه حجز له في سكن بشبرا بنفسه، ثم عن أنه (شكرالله) ذهب فوجد الغرفة التي خصصوها له في السكن 'متر في متر،' وأنها كانت مخنوقة ورائحتها كريهة، وكانت مأوى للصراصير والبراغيث، وكيف أنه قبل فقط ليرضي 'الرجل البركة،' حيث أن صلاته عند سيادته 'تساوي أعظمها جناح.' وكانت تلك القصة الخانقة بالمناسبة أداة تعذيب لكل طالب أتاه وقد زين له 'إبليس اللعين' أن يفكر في أن يفكر في تغيير غرفته، فإن شكرالله كان يأخذ في ترديدها على مسمعي الطالب حوالي مائة مرة، حتى يحفرها في تلافيف ذاكرته، بل أحياناً كان يبدل في التفاصيل حسبما يحتاج الموقف. فإن وجد الطالب ثابتاً على موقفه بعد كل ذلك كان يقول له: 'أنا ليس لي شأن، اذهب وحادث سيدنا يا عريس.' وسواءً وافق سيدنا أم لا فإن شكرالله كان يقول للطالب المسكين بعدها: 'أنا سيدنا كان من نصف ساعة معي على الخط. قال لي كلمتين أود أن أذكرهما أمامك حتى تعرف سير الأمور. قال لي: ''السكن سكنك يا شكرالله، فهل نحن يا عمي نفهم في السكن أفضل منك؟'' وقال لي: ''كل ما تريده يا شكرالله هو ما سيكون.'' ها يا عريس؟ هل فهمت، أم أكررها لك ثانية؟' غير أن شكرالله كان يسمح للطالب بتبديل غرفته في النهاية أحياناً، لكن إلى غرفة أخرى غير التي طلبها تماماً.

والآن بعد أن أمتعني شكرالله بحكاياته المثيرة، وبعد أن سألني عجايبي للمرة الستين عن الحال والأحوال، وبعد أن جاء أناس من المبيت يريدون في آخر الليل محادثة ومؤانسة، ثم نادوا على وهبة لكي يلقم شاياً، وقال هو: 'جاااي السرييبع،' سمح لي شكرالله أخيراً أن أنصرف.

فصعدت وأنا أتخبط في السلالم وأسب الدنيا كلها. وعند الدور الثالث تخطاني شكرالله وصعد للخامس، ليعطي للفتى الطويل وصاحبه الغرامة.

في صباح اليوم التالي مباشرة أتاني عبدالله. كان يوم جمعة، وكنت نائماً لما أوقظني وهبة وهو يضحك. قال لي أن قريبي عبدالله بالأسفل يريدني. فضحك فادي أيضاً، ولكنه لم ينزل طبعاً، فأنا وحدي كنت المطلوب دائماً.

نزلت لعبدالله فرأيته أمام الباب في طقم سماوي عجيب بغير ياقة ولا أزرار، وبدا كأنه سيختلط بالسحاب، ولم يكن قد حلق لحيته منذ زرته، وكان يبص حواليه في توجس غريب عرفت ماهيته فوراً. وما أن رآني عمك عبدالله حتى قفز إليّ وحضنني، ثم دس كيساً أسود في إبطي بدون أن أحصل على أي فرصة للتساؤل. ثم قال لي وهو يبكي:

'هذا دفتر التوفير خاصتي، حافظ عليه. اسكت! الولد رأيته البارحة وهو يلعب في أشيائي، وعادل آت غداً، وحتى العجوز ليلفون بدماغها!... [وبكى بحرقة] إني لا أستطيع استئمان غيرك على سري يا بابا! إني آسف، سأرهقك معي!'

'لا تقل هذا يا عم عبدالله.'

فأكمل بدون الانتباه لي:

'وإني أعدك أني بمجرد أن تنتهي هذه الأزمة الشرسة [تساءلت في سري عما تكون هذه الأزمة العجيبة] لآتيك بالأكل! وأغذيك، وأعود أعتني بك يا جون يا بابا!'

'لا أريد منك شيئاً يا عم عبدالله.'

كنت كاذباً، وفعلاً خرجت بمكسب: عشرين جنيهاً أعطاني إياها عبدالله وهو يدوس ويعصر يديّ عليها ويقول:

'خذ، خذ، لا تعاندني! أنا مثل أبيك! خذ، ولا تجعلني أنهت! مسكين أبوك، مرتب واحد المسكين، ورجل قائم بعائلة. خذ، خذ! خذ يا جون يا ولدي لا تنكسف مني! هاه؟ أتنكسف مني؟ هاه، أتنكسف من عمك عبدالله! خذ يا جون....'

كنت خلال كل ذلك أريد أن أوضح له فقط أني لم أكن أعانده أو شيء، وأنني كنت أحاول سحب يدي فقط من قبضته، ولكنه لم يكن ينتبه إليّ. حتى أخيراً أفلتني فرأيت يديّ الاثنتين بيضاوين مثل الثلج. وربت عبدالله على كتفي وقال:

'هل تريد شيئاً آخر يا جون يا حبيبي؟'

قلت له وأنا أتألم وأدلك كفتيّ (حريصاً مع ذلك ألا أسقط الدفتر المدسوس في إبطي):

'لا، شكراً يا عم عبدالله.'

'إذن فأشوف وجهك بخير يا جون يا بابا.'

ثم انطلق في الشارع بدراجته العجيبة والصبية يلاحقونه.

بعد ذلك حدث ما لم أره، لكنه وُصف لي بطريقة دقيقة جداً: من ميخائيل الذي شمت في أخيه وبدا كأسعد إنسان في الدنيا، ومن أهل الشارع إياهم من أمثال رمسيس ومجدي ووهبة، ثم من شكرالله أيضاً الذي دوش دماغي بإعادته الحكاية مائة وخمسين مرة، فأحسست كأني حضرته ثانية بثانية. في الحقيقة، أحسست كأني حضرته عدة مرات، لأن كل شخص كانت له شطحاته الخاصة به وهو يحكي لي.

حدث تدهور عبدالله سريعاً جداً هذه المرة. فلم يأخذ أكثر من ثمانية وأربعين ساعة، بعد أن زارني، حتى كان قد تحول إلى 'مجنون رسمي.' بدأ لك ينظر إلى أمه وأخيه بنظرات متوجسة، مرتابة. ويوماً قال لأمه يا سحلية ولميخائيل

يا عرس. وأمسكوه ذات صباح بالقوة وهو خارج بملابسه الداخلية فقط ('وكان قضيبه ممتداً مثل عود قصب، هاه هاه هاه، يا جون يا بابا،' بحسب وصف ميخائيل.) كما التصق لك بلسانه دائماً اسم 'نعمان سيرافيم،' ويعلم الله من كان بالضبط (ميخائيل اقترح أنه روح نجس يركب أخاه.) وبدأت له عادة غريبة في اللف حوالين نفسه قدام مدخل العمارة لعله ينغرس في الأرض أو يدوّخ الناس الله أيضاً أعلم. ثم راح لك يمارس عاداته المحببة في الصرمحة في الشوارع وشتم أهلها. ثم تبرز أمام قسم شرطة الرافعي وكاد يتسبب بكارثة اغتصاب امرأة منقبة، فاستغاثت المدينة كلها بعادل.

وقد حضر عادل فهاتف الدكتور محمود رأفت فقال له الأخير أن أفضل حل هو الحجز في مستشفاه الخاص وفي أقرب وقت، لكن كانت المشكلة هي في الحصول على عبدالله، فقد كان يغيب أغلب اليوم بالخارج. فخرج يومها عادل (شكرالله قال أنه خرج معه، مع أني لا أشتري منه كلمة) ينقب عن أخيه حتى وجده أمام بائع جرائد في شارع رزق باشا يميل على المانشيتات بزاوية تسعين درجة ويرددها بصوت مرتفع أضحك الناس من حوله. فأخذه من إبطه وسايره وقال له أنه متعاطف معه، وناقم على ميخائيل، لأن ميخائيل متواطئ وخوّل، وأنه يريده معه حتى يهزئ ميخائيل أمام عينيه. فسار معه عبدالله، لكنه في نفس الوقت منفصل عنه، آخذاً (بحسب كلام وهبة الذي لم يكن معهما وقتها) في ترديد آيات من اختراعه الخاص وآراء مهووسة. وكان من عادل أن اتصل بمستشفى الدكتور محمود رأفت وهو سائر مع أخيه متظاهراً كأنه يحدث زوجته، فلما وصلا إلى الشارع كانت عربة الاسعاف عند مقدمة المدخل. ولم ينتبه لها عبدالله إلا بعد أن صار قيد خطوتين منها. ساعتها، نطح بكرشه، وشخر عالياً، ثم جرى فجرى خلفه التومرجية، إلى أن أعجزوه وكتفوه بصعوبة تحت بلكونة جدو (الذي كان حفيده ماندو يتابع ويبخ عليهم بمسدس المياه.)

قضيت عشرين يوماً، أو أكثر، أتابع أخبار أقاربي في آخر الشارع فلا أجد شيئاً. كانت بعض الامتحانات قد بدأت في الظهور وكنت في شد الحاجة لمعونات عبدالله.

كان عبدالله (في أوقات 'عقله') يزورني كثيراً، وكان يحضر لي معه على الأقل حلة أكل كاملة، مع بعض الفاكهة والمربى أو أي شيء جيد آخر. كان البيت كله تقريباً يأكل من طبيخ عبدالله، والفاكهة كنت أحتفظ بها لنفسي، مع أن أشخاصاً أمثال Current أو جلاب أو كيكي، أو حنا رأفت رحمه الله، كانوا يسطون على الثلاجة بدون إذن فيسرقون ما يحلو لهم. وكان عبدالله أيضاً يعطيني كثيراً من الفلوس لتعاونني في شراء ما يستلزمني للمذاكرة: نسكافيه وشاي أو كولا وبسكويت وخلافه. أبي نفسه لم يكن يعطيني مثل عبدالله. ولا أنسى مرة، لما رفض أبي أن يكمل لي مصروف الشهر واضطررت أن أستلف من فادي، أني تمنيت من قلبي أن يحل عبدالله محل أبي، بطريقة ما. لم أتمن بالطبع أن يموت أبي، لكني تمنيت أمنية خيالية أن يكون عبدالله هو أبي، على الأقل حينما أريد.

لكني لم أكن أحتمل عبدالله، لابد لي من الاعتراف بهذا، وكنت أفضّل أيضاً أن يحل ميخائيل محل عبدالله، لأن ميخائيل عالي الثقافة ومسكين، ولأنه كان يحبني، حسبما اعتقدت، أكثر من عبدالله. على أي حال كنت في حاجة لعبدالله، بخيره وفلوسه، أكثر من غيره تلك الفترة، لأني أيضاً كنت أنفق كثيراً، غالباً على الكلام الفارغ، وانتظرت بصبر فارغ أيضاً أن يعود عبدالله من مرضه.

وفي يوم من أواخر شهر أكتوبر، عاد عبدالله. فقررت أن أذهب إليه. وبالفعل ذهبت مع فادي بعد إلحاح.

كان فادي قرفاناً من الزيارة من قبل أن تبدأ، وكان يمشي لك وعينه على الأرض، ويحك بشبشبه حكاً في الأسفلت كأنه لاعب كرة خسران، وقبل دخولنا إلى المدخل (ولوحي وجهي عن ناحية عمك ملقي الذي كان يشتمني علناً لامرأته،) قال لي:

'لن نتأخر، ها؟ إياك أن تورطنا وحياة أبيك.'

صعدنا إلى الدور الثالث وطرقت. ثم فتح لنا ميخائيل.

'يا أهلاً يا أهلاً يا جون يا بابا. تفضلا، كيف حالكما يا بابا؟'

كان بكيلوته وفانلته كالعادة، وكانت بالشقة رائحة توج وجاً. وكانت بالداخل كركبة مواعين علمت أنها لعبدالله، فعبدالله هو رجل الطبخ، مع أن أخاه هو من يحب الأكل. ثم هتف لك صوت خربان، متآكل، وكله ذبذبات صاعدة وهابطة، من الداخل:

'من يا ميخائيل؟...'

'إنهما جون والبشمهندس ابن سامية يا ماما!'

'إذن فلتحضرهما إليّ هنا يا ميخائيل!'

كان الصوت سعيداً جداً، كأننا وجبة سيأكلها. المهم، دخلنا لك الغرفة الخاصة بالحاجة، فوجدناها لك جالسة عند آخر السرير تتطلع إلينا في نظرات مخيفة. حقاً كانت مخيفة، أم عادل قريبتي، ولا أنسى اليوم الذي أعطتني فيه المائة جنيه، حينما كان سيغمى عليّ من الرعب وهي تقترب مني بوجهها المشقق، وأسنانها الساقطة، وأنفاسها الكريهة، وتقول: 'أنت كولدي! أمك ابنة حبيبتي. إن حدث لي شيء فمن غيرك يعتني بالولدين خارجاً؟ خذ يا حبيبي! كنا نعيش معاً في بيت واحد أنا وستك. كنا كإخوة كلنا نأكل من أكل بعضنا البعض ونتنفس هواء بعضنا البعض. خذ يا ابن الحبايب!' كانت حقاً أطيبهم، لكني عفتها لأنها كانت عجوزاً ومخيفة وكانت صورة للموت الذي نسيها.

قامت لنا ستك أم عادل وهي تهتز كالكرسي المخلع، ثم قبّلتنا على الخدين وقالت:

'الله، يا رائحة الأحبة!'

فقال ميخائيل:

'لقد جاءا ليسألان عنك يا ماما!'

ولا أدري من الذي أوحى لميخائيل بهذه الفكرة، لكن أمه فرحت جداً وقالت:

'أصيلان! أصيلان كباقي أهلهما!'

فضحك ميخائيل وقال:

'ألم أقل لك؟ هاه؟ ألم أقل لك؟ ألم أقل أنهما قادمان اليوم!'

فأيدت كلامه وقالت، بفخر من لديها ابن متنبئ مثل ميخائيل:

'يعلم الله من باكر وهو يقول لي أنهما آتيان أنهما آتيان.'

فقهقه عمك ميخائيل وغرد، وقال:

'هاه هاه هاه. أسعيدة الآن يا ماما؟'

'سعادة الدنيا يا ولدي!'

'ربنا يسعد أيامك يا ماما!'

أمرت أم عادل ابنها أن يحضر لنا كرسيين من غرفة الجلوس، فخرج وهو يتطوح كعادته، حينها، علقت على مشيته وهي متحسرة قائلة:

'كان أفضل إخوته، الذي ترانه الآن، كان الوحيد منهم الذي له مستقبل. ألا انظرا إلى حاله الآن. تت. مسكين يا عيني!'

لم تعط للموضع حجمه أبداً، فليت الحكاية اقتصرت على ميخائيل فقط، لكن الأمر كان كبيراً ومستفحلاً، وهذا من أسباب أني كنت أنقبض من زيارتهم دائماً. فخذ عندك مثلاً الابن الأكبر عادل: عادل كان مصاباً بالعقم، ويقال أنه أنفق كل ما وارثه وما قدامه على هذه المسألة بدون نتيجة، بالإضافة إلى ذلك، كانت امرأته قد زرعت كلية في التسعينيات ومن يومها وهو ينفق على علاج المناعة الذي تتلقاه. ومريم، الابنة التي تلي عادل: كانت قد تزوجت رجلاً تمام التمام من القاهرة ولديه فلوس كثيرة، لكنه مات، في حادث لوري على طريق الفردقة، وعلى الرغم من أنها أنجبت منه، ابنة جميلة جداً كما رأيتها في الصور التي أرتني إياها أم عادل، لكن حمويها اضطهداها بشدة في الميراث، فلم تخرج من الزيجة إلا لله الحمد، شبه

معدمة. أما أغاثون، الابن المتبقي، فكان أبناؤه قد هاجروا إلى كندا مع مطلع الألفية، وتركوه، ثم أرسلوا لأمهم لتنضم إليهم، فتركته هي الأخرى وقالت عنه أنه مجنون، وأنها كانت تعيش معه في جحيم، وأنه لن ينضم إليهم يوماً على الأرض. نظرية واحدة كانت تجمع كل تلك المآسي، وهذه النظرية كانت تقول بأن رب الأسرة الراحل، عمك أغناطيوس، كان قد نهب أخواته في ميراثهن، وبالتالي نزلت على أبنائه اللعنة. لكن أنا لم أكن أصدق مثل تلك الخزعبلات، وكنت أظن بأن جميع الأبناء كانوا مجانين بالوراثة وأن الجنون هو سر تعاستهم. لكن الجميع من حولي تقريباً كان يؤمنون بتلك النظرية.

جاءنا ميخائيل بكرسيي أنتريه حملهما كقطعتي أسفنج. ثم جلسنا وأخذت لك أم عادل تحكي عن زمن زمان، وعن البيت الواحد الذي ضم، أيامها في أبي شوشة، ثلاث عائلات، وكانت تستخدم نفس الكلام هو هو في كل مرة. كنت خلال ذلك ألاحظ الكرسي الخشبي المتسخ الذي وضعته بجانبها كترابيزة للبرشام: كان مليئاً بالبرشام، من كل لون وصنف، برشام مخلع ومقصقص لا تعلم لم هذا ولأي شيء ذاك، كأنها سلطة، وكنوع من البركة، وضعت لك الأم بعض صور القديسين في الطبخة لعلهم يشفونها. كانت متدينة جداً، الأم العجوز، وكانت تظن أنها ستذهب للسماء. وإذا بصوت يأخذني من تأملاتي:

' يا أهلاً يا أهلاً يا أهلاً يا أهلاً، أنا قلت لما الشقة منورة!'

اقترب منا عبدالله وكان يضع فوطة المطبخ فوق كتفه. كانت يداه ملطختين بالدهن، فعانقنا بمودة لكن بحرص، ولم يكن هناك الهوس المعتاد. كان ممتلئاً بالحيوية، إنما أرزن وأهدأ، والحقيقة أننا كنا قد اعتدنا ذلك فهذا ليس بالشيء الجديد: فكم من مرة ورأينا كل واحد منهم يتردد على الصحة والمرض، المرض والصحة، فما يلبث أن يخف ونشكر الله، حتى يسقط مرة أخرى في الأمراض المتنوعة كأنها وطنه ومأواه. لهذا فقد سألت عمي عبدالله وأنا أسلم عليه بتدقيق واهتمام:

'كيف الحال الآن يا عم عبدالله ؟'

فرد عبدالله وهو ينظر حواليه في سرور وثقة، كأنه مستغرب السؤال:

'عالية. لا شيء أبداً!'

وكان لعبدالله تاريخاً طويلاً في الكف عن دوائه من نفسه، وربما كان هذا هو سبب الانتكاسات الكثيرة التي تشرف بها من وقت لآخر، فشدد عليه فادي قائلاً:

'نريدك أن تأخذ دواءك بانتظام الآن يا عم عبدالله.'

'لا لا، سآخذه بانتظام من نفسي!'

'إذن، فلا شيء ولا أفكار مقلقة الآن يا عم عبدالله ؟'

'لا شيء. لا شيء أبداً!'

'وأنت الآن، تروح إلى الشغل ؟'

فقال عبدالله وهو يقترب من أمه، التي كانت تنظر إليه في سعادة بالغة وشكر، كأنها بهذا تصدق أنه خف:

'لقد أخذت إجازة، وكله لأجل هذه الست. [وقبل رأسها بقوة غريبة] الست البركة هذه. من يعني بها المسكينة ؟ من يؤكلها ويشربها ومن ينظف الشقة ؟ فحتى دورة المياه لا تذهب إليها وحدها لما يشتد عليها المرض!'

ثم أنهى كلامه، الذي بسط أمه أكثر وأكثر فأخذت لك تبتسم إليه وتنظر له بدلال وحب، كأنها طفلة يدللها ابنها، فنظر نحو 'الأخ الغريم،' هناك المسنود إلى الباب، في قرف، كأنه يقول له: أرني ماذا تستطيع أيها الفاشل. كانت بينهما منافسة على الأم المتحللة، وقد كسب عبدالله هذه الجولة بتفوق.

بعد هذا دفعنا عبدالله إلى الخارج بطريقة ما بدت أشبه بمسكته بجادون دراجته النصر، فقال لنا أن الأكل قد نضج. فجاهدنا والله الجهاد الحسن أن لا نأكل (وكنا نحب طبخ عبدالله حقاً لكننا كنا نعوف مواعين البيت من ناحية، كما أننا كنا اتفقنا على ألا نتأخر،) غير أننا سريعاً جداً تنازلنا عن طموحنا هذا، فقد وجدنا أننا كنا سنصنع حرباً برفضنا، فقد راح لك الأخوان يتنافسان بقوة على إرغامنا على

الأكل، وهذا حتى يبين لنا كل واحد منهما حبه ومودته لنا أكثر من الآخر. بناءً على هذا تفرقا فاستلم عبدالله المطبخ، يجهز الأطباق، ويغرف بحنكة شديدة، بينما ارتخى لك عمك ميخائيل على الكنبة وراح يشرح لنا مميزات الأكل بأنواعه، ثم من وقت لآخر يسأل فادي عن خالاته، أو يستفسر عن علبة البن وكيف أحوالها.

حرقت دمي تلك الزيارة، فبعد أن ضيعت ساعات في الكلام الفارغ، لم يتذكرني عبدالله بخمسة قروش، ولم يعطني شيئاً من طبيخه حتى آخذه معي للسكن. لهذا فقد صممت على أن أعود في زيارة أخرى، وشجعني على هذا أني تذكرت دفتر توفير عبدالله الذي كان قد تركه في عهدتي ويبدو أنه نسيه. فذهبت في يوم آخر وحدي، وأتذكر أني شاهدت هنية، شحاذة الشارع وأحد مخابيله، تلم الطوب في طريقي، فلم أشعر بتفاؤل.

ما أن صعدت لك حتى الدور الثالث، حتى سمعت لك صوت صراخ وزعيق وضرب. فراجعت نفسي والله، لكني وجدت أن التجربة لن تضر كثيراً، ولعلي في النهاية أخرج من عبدالله بقرشين. فطرقت فوق الشراعة، وجذبني عبدالله للداخل.

بالحرف هذا ما حدث. فكأن عبدالله كان ينتظرني بالثانية على الناحية الأخرى، لم أكمل رد ذراعي إلى جنبي بعد أن طرقت لك طرقتين، حتى رجفني عبدالله بأن شد الباب فجأة، ثم سحبني للداخل. كانت الأم العجوز أول من رأيت. كانت تجلس على كرسي بجانب الباب وكانت مهمومة فلم ترد تحيتي. وكان ميخائيل أبعد ما يكون عني. كان عند الشباك بأبهى ملابسه. كان ميخائيل مخنوقاً، وكان وجهه أحمر على أسود، وعروق وجهه تكاد تقفز قفزاً. فعلمت أن بالأمر خناقة كبيرة.

استلمني عبدالله براحة كبيرة جداً، وتنهد لك كأنه قادم من مشوار طويل، وقال بشجى عظيم:

'جيد أنك أتيت يا جون...'

ثم قال:

'ألم أقل لك؟ ألم أحك لك قبلاً؟ ألم أنبهك إلى أفعاله؟'

وتنهد لك مرة أخرى، قبل أن يمسك كفتي الصغيرة ويضع بها جسماً أسود، خفت منه في البداية، لكني تفحصته فوجدته فردة جورب حريمي أسود.

'ما خشيناه، لقيناه. من يا بشمهندس يلبس جوراً كهذا عندنا في البيت؟ من؟ أمي؟'

واحتضن أمه من الخلف، وضحك ثم قال:

'الست البركة؟ هاه هاه هاه. ولا شافته في أيام زوجها. من إذن؟ أنا؟ [وتبسم وهو يشير لنفسه] ربما! ولا، ما رأيك يا بشمهندس؟'

كان سعيداً جداً بـ'الفرصة' التي وقعت في يده لفضح أخيه وإظهار راية الحق أخيراً، وبالأخص أمام 'البشمهندس' قريبهم، الذي أخذه هو وأخاه كمثليه الأعليين طبعاً. وأكمل عبدالله:

'اتضح أن "الأستاذ،" حينما تكون أمه نعسانة وأنا أسعى في البلد على فلوسه وفلوس الذين خلفوه، يحضر إلى بيت أبيه مومسات! شرامبط! بنات ليل يركبهم الحزين! شفت يا جون! [فملتفتاً نحو أخيه] يا أخي فضحتنا، المسيح يتصرف فيك!'

كدت أضحك وأنا أتصور ميخائيل 'يركب،' والحقيقة أنه كانت لي دوافع لهذا:

فمرة، في عام سابق لا أذكره بالضبط، اتهم ميخائيل فتاة عاملة، كانت تحضر عندهم أحياناً لتنظف الشقة وتنفض الشيش وتطهر الحمام وخلافه، بأنها قرصته في خده وهو نائم فأيقظته. وكانت حادثة أيامها، عرفها كل سكان الشارع. بل أن حنان أخذت تستهزئ بميخائيل وتقلده وتقول: *'البنت قليلة الأدب قرصتني في خدي وأنا نائم، فقلت لها: "لا، إلا ميخائيل أيتها البنت السيئة!"'* (هل كانت هناك ذرة من الغيرة في أسلوبها؟) كان ميخائيل مجنوناً (حسناً، من الناحية الأخرى) بالحريم: كان يموت في الحريم، وكان كثير الهيجان بحيث أنك كنت لتخاف منه.

في أكثر من مرة، وأنا جالس معه، كان قضيبه ينتفخ هكذا بدون معنى، خاصة عندما يشرد ويبتسم مع نفسه، فكنت أبتعد عنه وأقول له: 'عم ميخائيل...' وكان يعرف لك اسم كل أنثى في العائلة، بطريقة خرافية، حتى ابنة بنت خالتي في ديروط التي لم أكن أنا أعلم اسمها ولا شفتها مرة في حياتي. يقال أيضاً أنه كان في شبابه يحب خالة فادي بهجت 'فيولا.' وخالتك فيولا هذه تستحق الحب بالتأكيد: مليحة، ورشيقة، وذات ابتسامة مغرية، وسمرة كاريبية، وتتصرف كابنة عشرين (ترى كيف كانت في أيام ميخائيل!) ويشاع، الله أعلم، أنه (أحرقه الله) كاد يتحرش بعمتي عندما كانت في ضيافتهم أسبوعين أثناء عمل بعض التحاليل لزوجها، (المرحوم حالياً،) ذلك الرجل العصبي النحيل الذي يشبه لطفي لبيب. وهو الأمر الذي أحرق دمي دوماً. فعمتي، واسمها وحياة ربنا 'عماد،' لم تكن أكثر من امرأة قصيرة، جداً، أقصر من وهبة، بطيئة، ومليئة بالتجاعيد، وكانت مريضة أبدية بالتهابات بالجيوب الأنفية مما جعلها تمسك منديلاً قماشياً قذراً بيدها طوال النهار تنف فيه. لكن كانت هناك حادثة واحدة علمت في دماغي، من ناحية مغامرات ميخائيل، وهي التي كانت تحضر إليّ كلما حضرت موقفاً مشابهاً: موضوع إنجي سيفين، ليس بسبب أنها ربما أظرف ما مر أمامي من هذه الأمور، لكن لأني نفسي كنت طرفاً فيها. فما حدث أن إنجي هذه كانت قريبة لنا، طالبة تكبرني بالمدينة أيام لما دخلت الجامعة. لم تكن جميلة. كانت سمينة، وبطيئة مثل عمتي، وكانت لها نظرة بنت وسخة في عينيها، نعسانة هكذا وكلها قرف، كأنها كانت تمر بالدنيا، وبك، مروراً عابراً في سبيل هدف أهم. لكن كان لها شعر فاتح لونه قريب من الأشقر، وكانت عيناها خضراوين، وكانت بشرتها بيضاء: من الآخر، عجبت لك عمك ميخائيل. قبل أن أدخل أنا وفادي الجامعة كانت إنجي قد اقترفت الإثم فعلاً: كانت قد تعرفت على أقربائها الوحيدين بالمدينة. وبرغم أنها قد انقطعت عن زيارتهم وبترت لك كل صلة بهم من بعد أول أسبوعين، إلا أن ميخائيل الشهم حلف برأس أبيه الميت (عمك أغناطيوس الحرامي) إلا وألا ينقطع عنها بدوره، إشفاقاً عليها

المسكينة. راح لك يتردد عليها بصورة مريبة في الجامعة، ويقف معها ويحرجها أمام زميلاتها، ثم أخذت لك رجله أيضاً على سكنها (سكن العذراء بشارع توفيق الحكيم،) وأخذ يشتري لها هدايا غريبة ومتنوعة: كأن أهداها مرة لعبة يويو، وكتاباً دينياً عن مخطوطات وادي قمران، ثم علبة ماكياج وصل عندها الأمر إلى آخره فاشتكت الفتاة لأخيها جمال. جمال اتصل بميخائيل وزعق فيه وأهانه، بل وشتمه فبكى عمك ميخائيل. المهم، بقي الموضوع على حاله لغاية وصولي أنا إلى الجامعة، وبسبب غفلتي، وحماقتي الأكيدة وعدم معرفتي 'أخلاق' عمي الشهمة وقتها، فإني بمجرد أن طلب مني عمي ميخائيل رقم موبايل 'البنت إنجي، فلها فترة غير ظاهرة البنت، ' حتى أعطيته له على طبق من فضة.

انفجر لك ميخائيل من جديد يطارد الفتاة. راح لك يزورها في الجامعة أكثر من الأول، واتصل بها خمسين مرة في اليوم، وحاول أن يزورها في السكن لكنها كانت قد أعطت للعاملة الحولاء التي تعمل هناك تعليمات مشددة بشأنه. وأخيراً قام جمال بالاتصال بعادل نفسه في بني سويف ونقل إليه الوضع حرفياً. فجاء لك عادل من بني سويف ومسح البلاط بكرامة ميخائيل، في وجود عبدالله وأمه، وصرخ فيه: 'ستفضحنا يا رجل يا كبير! والله عال!' ولم يغادر من هناك قبل أن يقسم ميخائيل (بتاريخ العلم، أعتقد) أنه لن يقوم بالاتصال بإنجي بأي وسيلة كانت. وقد وفي ميخائيل بقسمه.

لقد زرت عمي ميخائيل بعد انقشاع الغيمة (بالطبع كنت قد أنكرت كل الإنكار أنه كانت لي أدنى علاقة بحصول ميخائيل على رقم قريبتي،) فوجدته محطماً. كانت عيناه قد غارتا، وجف جلده، وكانت هناك دائماً آثار غمص بداخل عينيه، وإن حدثته في الشأن بكى لك ميخائيل، وقال: 'لابد أنه جمال!... إهئ إهئ إهئ... هو، جمال. الولد لا يمكنه أن يعي أني عظمة كبيرة، وأن تلك الأمور ما خطرت لي ببال!... إهئ إهئ... كل ما شعرت به يا جون يا بابا هو ''عطف أبوي، '' عطف أبوي على البنت المسكينة. يتيمة البنت، وهي في غربة، وليس لها أحد سوانا

هنا ليسأل عنها. أليس كذلك يا جون؟ أليس كذلك يا جون يا بابا؟ ما رأيك في هذه المسألة يا جون؟ يستحيل أن تكون إنجي قد اشتكت، لا نظلم البنية أبداً!' وقد جعل ميخائيل في تكرار نفس الشريط هو هو في كل زيارة، حتى تخرجت البنت. بعدها، ما عاد يذكرها أبداً. وابتدأ يسألني أنا كثيراً بدلاً: 'إنما أختك كريستين في أي سنة يا جون يا حبيبي؟' فكنت أقول له كي أقطع عليه الطريق: 'إنها في كلية تربية بجامعة جنوب الوادي.' 'ولكن، ألا ينفع التحويل يا حبيبي حتى تصير هنا بجانبك؟' فكنت أجيبه أيضاً بصورة قاطعة: 'لا.'

لهذا فقد كنت أضحك كلما تخيلت ميخائيل فعلاً 'راكباً.' والسبب لا يتعدى كون أغلب المغامرات التي مر بها أمامي، هي مغامرات مضحكة، وفي نفس الوقت، فاشلة.

لكني تساءلت بالأمانة هل أمكن لميخائيل فعلاً أن يفعلها؟ ولهذا سألت:

'من الذي وجد [مشيراً بفردة الجورب] هذه؟'

فقالت الأم بحسرة وألم:

'عبدالله وجدها تحت مخدة أخيه.'

هنا بدأت أرتاب. ورأى ميخائيل أنه قد حان الوقت ليتدخل فهتف لأخيه:

'حرام عليك! حرام عليك يا عبدالله أن تتهم أخاك بهذه الاتهامات الظالمة!'

فنتر عبدالله فردة الجورب من يدي ورفعها عالياً، يرعشها، وقال:

'ومن أين أتت هذه إذن؟'

كنت أريد أن أقول له أنه هو الذي وضعها، لكن ميخائيل فجأة انفعل، فرجفني في الحقيقة:

'عبدالله!'

ثم أكمل بعد أن أخذ نفسه:

'يا عبدالله أنت تتهم اتهامات جارحة يا عبدالله! وتقول كلاماً مسيئاً في حق أخيك الذي يكبرك سناً!'

وفجأة بطريقة هادئة للغاية:

'يا بابا احترمني قليلاً، لعمري أنا ما نعتك بالألفاظ.'

وبسرعة قبل أن يستطيع أينا أن يلمس الأرض، كان قد صرخ وهو يزفر ويضرب على وركه:

'ارحميني يا أم النور!'

ثم وجه لك بصره خارج الشباك، حيث الظلام، لعله يتلاشى.

ضحك عبدالله، عالياً جداً، ثم قال لي بسعادة:

'دائماً هي الحال هكذا يا بشمهندس جون: يعمل العملة، وعندما نواجهه بها، يدور بوجهه. والحمد لله أنك هنا بنفسك لكي تراه وهو بالوجه الآخر. الوجه القبيح. الوجه الزفت والقطران عليه وعلى الذين جابوا أهله! وألم أقل لك يا عمي؟ هاه؟ ألم أقل لك؟ ها خذ عندك آهه. وخل بالك، ما وجدناه اليوم جزء صغير من الذي سار فيه لسنين طويلة يا عمي!'

وتدخلت الأم:

'لا يا ولدي... لا تقل عن أخيك هذا الكلام...'

فقام لك ميخائيل، بطريقة تقول 'يا هادي،' وتقدم نحو غرفته. والحقيقة أنا أقول 'وتقدم نحو غرفته' لسبب: هو أن ميخائيل قطع المسافة من الكنبة إلى غرفته في، تقريباً، نصف ساعة. يستضعف لك عمك، ويتمسكن، ويمثل أنه سيقع، ويذرف له دمعة أو دمعتين، ويطلق تعبيراً مثل 'سامحني يا عبدالله إن كنت قد أخطأت في حقك يا ولدي، سامحني أنا الخاطئ،' وينشج، ويتشنج، كل هذا وعبدالله يرقص، ولا أجدعها راقصة بلدي، ويقول:

'نعم! اعملهم علينا يا فاجر! اعملهم علينا يا ولد يا نصاب. هه هه هه، خذ الولد تحت إبطك يا ابن الكلب!'

فلما تم وصول ميخائيل والحمد لله، إلى باب الغرفة، دخل بسرعة البرق وهو يصرخ:

'نفسي حزينة عليك حتى الموت! نفسي حزينة عليك حتى الموت يا عبدالله!'

ثم خبط لك الباب خلفه خبطة رنت في آذاننا.

قامت الأم تعتكز على الحيطان والكراسي لتصل إلى ميخائيل، بينما قال لي عبدالله:

'أترى؟ أترى؟ هذه هي أفعاله!'

فربتّ على كتفه وقلت له:

'لا يهمك أنت يا عم عبدالله، دعه ربنا يهديه.'

'إلى متى؟ إلى متى يظل يفضحنا ويمرغ رأس أبيه في التراب؟'

كانت رأس أبيه في التراب فعلاً على حد علمي.

'أنت لا يهمك. أعصابك أمانة عليك.'

فهز عبدالله رأسه، لكنه انحل عني. أخذ عبدالله يكلم نفسه ويقول:

'لكن، الأرض، والإيراد من عند الأستاذ تيموثاوس، والولد الله...'

فقاطعته:

'عم عبدالله...'

'هاه، نعم؟'

مددت يدي بالدفتر في كيسه الأسود كما كان، وقلت ببسمة أنيقة:

'الدفتر، الذي تركته عندي يا عم عبدالله.'

ظهر أمامي كأن عبدالله نسي الدفتر فعلاً، فقد ظل ينظر إلى الكيس فترة في عدم فهم. ثم أخيراً فتح الكيس ومسك دفتر البنك الأهلي إياه (الذي كنت قد اختلست منه نظرة عن نفسي لأطمئن على رصيد عمي،) بعدها قال:

'آه نعم نعم، شكراً يا جون.'

فودعته وأعطيته ظهري وفتحت الباب، فقال لي:

'لتمكث تشرب شاياً؟'

'شكراً يا عم عبدالله.'

'خلك والله.'

'متشكرون.'

'إذن خل بالك من نفسك.'

نزلت السلالم وكانت مظلمة. كانت الجارة المسلمة الجميلة فقط من تضيء أعلى باب شقتها، بنور خافت لم يضف للضلام الكثير، وكانت أنفاسي على آخرها، وأنا أنتظر أن يناديني عبدالله في كل لحظة. لكن عبدالله لم ينادني ولم يغلق بابه أيضاً. هل كان الحزين يكلم نفسه مرة أخرى يا ترى؟

أقسمت بعدها بالطبع ألا تلمس قدمي أرضية شقتهم، فعلى ما يبدو عبدالله قد تغير وأصبح بخيلاً، أو أنه انشغل داخل نوبة جديدة من العقل أو الجنون، لا يهم، ولن يتذكرني لا بمليم، ولا بكعب بامية.

لكن كلها أيام وورطني شكرالله في ورطة جديدة من ورطاته التي لا تنتهي.

رجعت في يوم أحد من أحد أيام نوفمبر، ووجدت شكرالله في انتظاري كالعادة.

'أين كنت؟'

وهو سؤال غريب، لأني كنت في الجامعة.

قلت له والعرق ينهمر على وجهي:

'كنت أشتري بعض الحمص.'

'هل تهذر في أيامك السوداء؟ قريبتك تموت في آخر الشارع.'

يا سبحان الله! قريبتي كانت لها ثلاثون سنة تموت.

'ما الذي حدث يا أستاذ شكرالله؟'

أخبرني شكرالله أن العجوز فعلاً مريضة: سقطت على الأرض ومنعت البول، وشوهد عبدالله (عدة مرات) وهو يحضر لها دواء من الصيدلية الموجودة على ناصية شارع الدمرداش في هذيان تام. أخبرت المشرف أني سأذهب فوراً لأقاربي لأمد يد العون. كانت يدي صغيرة، ولم أعلم حقيقة كيف كانت لتمد العون، لكني علمت أن شكرالله لم يكن ليتركني هذه المرة أتزحلق من الزيارة، لأن الموضوع كان كبيراً جداً في دماغه حسبما رأيت.

المهم، وجدت لي بدوري أنا أيضاً عوناً: أخذت الدقرم. والآن أنا لا أريد أي أحد أن يضحك، فالجميع رفضوا أن يرافقوني. ثم، ما له الدقرم؟ حقاً صغير وله رأس كبير يبدو أحياناً أنه يعجز عن حمله، لكنه بروتستانتي (في السر) ومتدين، وغير هذا وفي، وكان يبدو لك شجاعاً بطريقة ما: دائماً كان الدقرم يقحم نفسه في المواقف المستعصية فلا يخرج منها إلا بعد أن يندعك، وعمره ما اشتكى. كان عماد (هو الدقرم) من أشطرنا كافة، وكان صديقنا من أيام ثانوي. وعند دخولنا الجامعة، كاد يفقد مركزه في بيت الأنبا تادرس من قبل أن يبدأ (كدنا نحن نفقده في الحقيقة) بسبب أن شكرالله طلب من كل منا بياناً موقعاً من أب الاعتراف، وعماد لم يكن له أب اعتراف. ففبركنا له بياناً مزيفاً ووقعه بطارخ باسم أبونا أبسخيرون، أو أبونا كعب الغزال لا أتذكر، ومن يومها ومسكناها لعماد، نهدده بإبلاغ شكرالله أنه بروتستانتي وأنه زيف بيان أب الاعتراف، أو يتشاجر معه أينا فينزل لشقة الإدارة ويتظاهر بأنه أبلغ شكرالله. فكان عماد يشحب لما يظن أننا أبلغنا عنه. كان يرتعب من فكرة أنه قد يطرد من بيت الأنبا تادرس في أي لحظة إذا ما تهور أحدنا بما يكفي، فقد صار البيت وطلبته هما حياته، بل أنه كان من أشد المنتظمين معنا في الصلاة برغم معارضته لطقوسها. وإني لمتأكد بنسبة كبيرة جداً من أن شكرالله كان يعلم سره من البدايات الأولى، فقد كان وراء شكرالله جهاز استخباراتي رهيب، لكنه تركه هكذا يقضي أيامه بمزاجه. ومن يعلم؟ لعل للدقرم حكاية أخرى مثل حكايتي هذه تخرج للنور ذات يوم.

بمجرد أن عبرت مع الدقرم من أمام جامع حمزة، الذي يلي البيت من الناحية الأخرى بعدة أمتار، ثم دخلت في المضيق الأخير للشارع الذي يؤدي إلى مدخل العمارة إياه، حتى سمعت لك صوتاً ينادي أهلي:

'انتظر يا جون.'

فتظاهرت أني غير سامع وانطلقت مع الدقرم وشددته من يده إلى المدخل. صعدنا بالفعل للدور الثالث، وطرقت، لكن عمك ملقي لحق بنا في النهاية فوبخني قائلاً:

'ما لك يا ولد يا جون؟ ألم أنادك بالشارع؟'

كان يلهث من صعود السلم. يقال أن الأستاذ ملقي كان عنده مرض في القلب أو في الرئة لا أعلم، وأن هذا ما قتله في النهاية ذات صباح وهو يرجع للخلف في شارع رزق باشا ليتحاشى تاكسياً. على العموم داست على قلبي كلمة 'ولد يا جون' هذه، مع أن الأستاذ ملقي كان في سن والدي أو جدي فعلاً، لكن كان يجب عليه أن يحترمني وأن يناديني بالبشمهندس، فالجميع كان يفعل عداه. فقلت لملقي:

'لم أسمعك يا أستاذ ملقي.'

كان رجلاً ممصوصاً، قصيراً وفارغاً من كل مظاهر الجمال، لكن كان شعره قوياً وطويلاً، وكان موزعاً بين الأسود والرمادي. فصعد لك الدرجة التي كانت تفصله عن البسطة، ثم قال وهو يقف بجانب الدقرم (كان أطول من الدقرم، الجميع كان أطول من الدقرم):

'ماذا حدث لستك؟'

آه. نسيت أن أقول أن عمك كان يحسبني دائماً ابناً لأحد إخوة عبدالله وميخائيل، ومهما كنت تحاول أن توضح له، فإنه ما كان يدعك أبداً تهز له هذا الإيمان، ويعود ويقول لك 'عمك أخو أبيك' و'ستك،' بطريقته الموبخة المستاءة منك ومن الذي أنجبك، كأنك لم تقل له شيئاً. ومع الوقت تعودته. وأعود وألعن شكرالله دائماً لأن لولاه، لما اختلطت بهذه الأشكال.

فقلت له:

'يقولون أنها مريضة.'

'وأنت؟ ألا تمكث جوارها؟'

دست على ضروسي وابتسمت له. ثم فتح الباب عبدالله وكان حزيناً. الشقة كلها كانت حزينة: كانت الأم راقدة على سريرها وفوقها كوفرتة حمراء، وكان ميخائيل يولول بجانبها، والأستاذ صبري (الجار الملاصق) قد أُحضر ليمد يد العون هو الآخر. وكان رجلاً أصلع بكرش، وبشنب عريض خفيف جداً كأنه بقايا طعام، وكان أوسخ ما فيه أنه كان يأخذ لك في الضحك والفرفشة، حتى في أحلك اللحظات، ويداعبك ويدغدغك ويضع ذراعه على كتفك، كأن الدنيا كلها مناسبات سارة، أو كأنه ظريف الملعون. أما عبدالله فبعد أن استقبلنا بدون كلمة، راح، وجاء، وتنقل من مكان إلى مكان، والعلم عند الله ماذا كان يفعل. مع هذا فكانت ما زالت لستك الحاجة القدرة على الكلام، وقد رحبت بالدقرم أضعاف ما رحبت بي، بالإضافة طبعاً إلى ميخائيل، الذي قطع ولولته فجأة ليرحب بـ'عماد يا بابا،' وليسأله كيف حاله.

وقال الأستاذ ملقي:

'خلي بالك من نفسك يا شيخة، أنت لديك أولاد غير متزوجين. زوجيهما أولاً واطمئني عليهما، وبعدها امرضي يا ستي على راحتك.'

فانبسط ميخائيل، وقال لأمه مؤيداً رأي الجار الجيد:

'نعم! زوجيني يا ماما، وبعدها انتقلي بسلام!'

لكنه لم يلبث أن بكى، وقال:

'أأنت بخير يا أمي؟ أأنت بخير يا ماما! الرب معك يا ماما! المسيح معك يا ماما!'

وكان يلفظ اسم أمه بطريقة حقاً غريبة: كأنه لما يقول 'ماما،' كان يناديها من بعيد مثلاً.

فقلت أنا:

'نعم. زوّجي عبدالله وميخائيل أولاً يا أم عادل، وبعدها يا ستي ربنا سيأخذك بنفسه.'

فقلبت أم عادل كفها، بما يشير للخضوع للإرادة العليا التي تنتظرها لتنقلها إلى السموات. وهنا قال صبري، وذراعه فوق كتفي:

'هه هه هه. لا تخافي يا أم عادل، أيامك ما زالت طويلة: الذي أوصلك لهذا العمر يا أم عادل، سيكمل معك.'

ثم أضاف:

'الناس كلها تحبك يا أم عادل.'

فشكرته الحاجة بضعف:

'الله يخليك يا ولدي.'

وانحللت لك منه أنا فضحك:

'هه هه هه هه، ما لك؟'

مالي في جيبي، هذا أول شيء، ثم أنه كان يرتدي بيجاما كستور مقلمة، في عز الصيف، لم يغيرها من أسبوع على أقل تقدير، فكانت رائحة إبطه لا تحتاج لوصف.

تركنا الدقرم يعظ لك الأم (لم يكن يبدو عليها أنها تستمع إليه: كانت تنظر إلى السقف خلف رأسها بطريقة وجعت لي رقبتي أنا، لكن ميخائيل كان يحملق في صديقي بانبهار، ويقول له: 'تمام يا بابا!') بينما أخذ صبري يتكلم لك مع ملقي جانباً في أمور بعيدة، غالباً كان يعرض عليه بضاعته. كان يقال أن صبري كان يتاجر في البرشام (الترامادول وخلافه،) وأن أيضاً فرج أخا مجدي كان شريكاً له. ويقال حالياً أن ميخائيل نفسه كان مدمناً للصنف، مع أني لا أستطيع تأكيد هذه المعلومة.

أنا كنت أدقق النظر في حيطان الغرفة، الجيرية المقسمة ما بين الأصفر المقشر والأخضر، فلربما تكون آخر مرة أراها إن ماتت العجوز.

لم أكن أريدها أن تعيش: فقد كانت عجوزاً وكنت أشمئز منها، ثم أنني كنت أظن أنها كانت مجنونة مثل ولديها (مثل ثلاثة من أولادها على حد علمي،) لهذا فكنت أود أن أتخلص منها لكي يصبح عدد المجانين من عائلتي الذين أعرفهم اثنين فقط. لكني، في وهلة، فكرت في ميخائيل وأدركت أنه ليموت إن ماتت أمه: ميخائيل كان يوحي لك أنه كان يعيش لأجل أمه، مع أنه، في الحقيقة، لم يفعل واحداً من مائة لأجلها من الذي فعله أخوه، الذي كان ينفق عليها ويحممها ويذهب بها إلى دورة المياه وينيمها ويوقظها. الغريبة فعلاً أني كنت متأكداً من أن الأم كانت تحب ميخائيل، الذي لم يفعل شيئاً، أكثر من عبدالله: أنا كنت أحب ميخائيل أكثر من عبدالله، وأمي كانت تحب ميخائيل أكثر من عبدالله، لكن وهبة مثلاً، وعمك ملقي، وشكرالله، كانوا يحبون عبدالله أكثر، لأنه فقط كان أكثر ظهوراً من أخيه، أو لأن جنونه كان واضحاً جداً.

بعد فترة جاء عبدالله بعد أن ارتدى بدلة صيفية وأخذ يمسح على كرشه، فقال في جدية غريبة عليه:

'لقد اتصلت بعيادة الدكتور. سأذهب أنا لأحضر تاكسياً، بينما، اعذرني يا ولدي (وأنت أيضاً [للدقرم]) ستحملانها إلى أسفل في أثناء ذلك.'

فقلت له:

'لا يهمك يا عم عبدالله.'

لقد اخترنا ونحن أصغر الموجودين سناً، والأقصر قامة، والأضعف خلقة أيضاً، كأنه كان ينوي نية سيئة لأمه. وكانت للأستاذ ملقي محبة خاصة للتاكسيات، حتى قبل أن يتسبب في قتله أحدها، فما أن سمع كلمة 'تاكسياً' حتى هتف:

'تاكسياً؟ سأذهب لأحضر معك واحداً من أول الشارع.'

'خلك يا أستاذ ملقي أنت رجل صاحب مرض.'

'لا لا، سأذهب مع عبدالله لآتي بتاكسي فقط من أول الشارع.'

وعليه، خرجا معاً، وملقي يكلم عبدالله بصوت خفيض اعتبرته حولي. كان الأستاذ ملقي يضعني في خانة الاتهام دائماً، من ناحية أي شيء سيء يحدث للأسرة القريبة من قلبه (كان يسكن على بعد أمتار من بلكونتهم، لا يجب أن ننسى هذا،) فكان يدس لك ويقوّم المؤامرات ضدي، وقال لميخائيل عدة مرات أنهم لا يجدر بهم أن يستقبلوني في بيتهم لأني نصاب، ولأني كنت أضحك عليهم، ولعله هو الذي منع عبدالله من إرسال الطبيخ والفلوس لي في النهاية، أجحمه الله.

استمر الدقرم يعظ الأم وعمك ميخائيل لعدة دقائق أخرى. كان يميل برأسه الكبير فوق رأس الأم يكلمها عن 'مشيئة الله' و'حياة الإنسان التي هي مثل البخار' ومواضيع أخرى غريبة من مواضيعه. يا أخي البروتستانت أولئك غرباء: تجدهم متدينين جداً، وعندهم ثقافة رهيبة بالكتاب المقدس وبكل شيء، وعندما تكون في مصيبة تحب أن تسمعهم، لكنك في الآخر تختلف معهم في كل شيء، وعن نفسي كنت أنتظر فقط أن أسمع أن فلاناً بروتستانتي، حتى كنت أخرج دينه. أنا كنت أجد راحة عميقة في مضايقة البروتستانت والكاثوليك، وكان فادي يحب أن يحضر من عند أمه كتباً تتحدث عن الاختلافات الدينية، فكنا نظل طول الليل نحفظ لنا آية أو آيتين، وفي الصباح نرددهما أمام أحدهم، ونضحك نضحك نضحك، فلا نعطيه الفرصة حتى للدفاع عن عقيدته الكاذبة. وكنت دائماً أريد لميخائيل أن يصير إنجيلياً، مع ذلك. ميخائيل لم يكن يصلي، لم يكن يذهب إلى الكنيسة، أي كنيسة، لم يكن يصوم أي صيام، وعندما كنت يا أخي تكلمه عن الرب وما شابه ذلك، كان يحملق فيك بانبهار، مثلما فعل مع الدقرم، وفي النهاية يشكك فيما تقوله بأفكار في قمة الإلحادية. أنا أظن مثلما قالت أمي: أن كثرة الكتب التي قرأها ميخائيل قد 'جنّته،' وبناءً عليه فقد إيمانه تماماً. والبروتستانتية بسهولتها وعدم وجود طقوس فيها، وعدم إلزامها لك تقريباً بأي شيء، سوى الإيمان (بالطبع كان يجب على ميخائيل أن يتنازل عن بعض معتقداته، مثل أن الإنسان هو تطور نهائي للأميبا، أو أن الأسد هو سيد المخلوقات لأنه يأكل الإنسان،) كانت لتناسب

ميخائيل. بل إني تنازلت عن إقتناعي بأن البروتستانت سيدخلون النار، لأني لم أرد لميخائيل أن يدخل النار. وحاولت كذا مرة إغراء ميخائيل بالفعل بأن يذهب لكنيسة قصر القداسة أو شيء مثل هذا، لعلهم يفيدونه هناك، لكن ميخائيل كان يستمع إليّ في صمت من لا يعجبه الكلام، أو كان أحياناً يقول لي: 'وأترك الإيمان القويم يا جون يا بابا؟' وهذه صفة أخرى من صفات عمك ميخائيل: كان يتطوح لك في معتقداته وآرائه مثلما كان يتطوح في مشيته.

قضيت الفترة التي أنزلنا فيها العجوز الطيبة، ستك الحاجة البركة، التي أخذت تصب علينا كل الدعوات التي سمعت بها والتي لم أسمع عنها من قبل، في نرفزة وسخط ألعن نفسي وكل الناس. في البداية تكفل ميخائيل بإفراغ الكرسي جنب السرير من كل ما عليه، فشال البراشيم والصور وأسقط نصفها على الأرض في محاولة لوضعها على السرير. ثم أخذ لك صبري ينكت ويقول لك 'هيا يا بطل،' و'هيا يا همام،' بدون أن يمد يداً، حتى انوضعت العجوز على الكرسي وهي تتأوه كأنها سارت مسافة. وكانت ثقيلة بالفعل، ولا أعلم هل المياه المحتجزة فيها (إن كان) هي التي ضاعفت من وزنها المتوقع، لكني والدقرم وجدنا صعوبة شديدة جداً في حملها. وكالعادة لم يشتك الدقرم، ولم تظهر عليه آية واحدة من آيات التكدر أو الزعل. كان سعيداً للغاية بأنه يؤدي 'خدمة في سبيل الرب' ويساعد الست الطيبة في بلوغ التاكسي الذي سيأخذها للطبيب.

هبطنا بها على السلالم بصعوبة شديدة. كان يجب عليّ أن أنزل بظهري (بحسب أوامر ميخائيل،) وأتلقى الحمولة كلها تقريباً على يديّ، بدون مجرد الاحتمالية في أن أسقط: فقد كانت العجوز تحتاج لخبطة واحدة فقط، فتنشرخ لك من أعلى لأسفل كإناء من الفخار، وكان الدقرم عمك عماد صموئيل يرفع من الجهة السليمة، الطبيعية في نزول أي سلم والله، ومع ذلك كان يحبس نَفَسه ويقول 'إحم... إحم.' وكان عمك ميخائيل وصبري يأمران وينهيان من فوق، لكني سمعتهما ينشغلان في حديث مع زوجة صبري التي قد فتحت الباب متأخراً، فتركانا لمواهبنا.

واستمرت الحاجة في تشتيت انتباهنا بدعواتها اللعينة حتى قلت لها وأنا أحاول الظهور بمظهر مقبول:

'أم عادل، هل يمكنك أن تصمتي لكي نركز ونحن ننزل ؟'

فقالت لي:

'طبعاً طبعاً يا ولدي، ربنا يباركك ويحفظك لأبيك وأمك يا ولد يا جون، ويعطيك بنت الحلال. . . .'

وعند الدرجات الأخيرة تعثرت أخيراً، فسقطت في المياه الوسخة الراكدة. كان عبدالله واقفاً هو والأستاذ ملقي بالتاكسي، الأول يزمر حتى الآن لسبب ما، والثاني أسرع بسرعة فلقط العجوز بالكرسي، بمساعدة الدقرم الهمام، فنظر لي نظرة كلها نيران: كأنه يتهمني أني أردت أن أسقطها عمداً.

ثم هز عمك ملقي رأسه كأنه متعجب من حال الناس أولاد الكلب في هذه الحياة، وقال:

'بركة يا أم عادل، الشيطان كان ينوي لك نية سوداء. لكن الله هو من مدّ يده وأنقذك.'

ففرحت به السحلية العجوز وقالت له:

'البركة فيك يا أستاذ ملقي.'

هز ملقي رأسه للمرة الثانية (شعرت أني أريد أن أدشدش له رأسه هذا الذي يهتز،) ووضع العجوز بمعاونة عبدالله والدقرم في الكرسي الخلفي، ثم انطلق عبدالله، وغار ملقي.

بعد هذا عاونني الدقرم، بحذر شديد وهو يقفز لك فوق الطب المرصوص في المدخل كالقنفذ، على الوقوف ورؤية ما صار إليه الوضع الوسخ. كان قميصي الكتان السكري الذي كنت أفخر به قد تلوث بالماء الوسخ والوحل، وبنطلوني كان يشر لك شراً، ولم أعلم كيف كنت سأمشي في الشارع حتى السكن بهذه الهيئة. لكن الدقرم القزم واساني بأنه سيسير جنبي من الناحية التي بها بشر، ليقلل من مدى

مشاهدتي. وواسيت أنا نفسي أيضاً، بسلام داخلي عميق، بأني ألقيت الكرسي الذي خلفته الأم إلى داخل المدخل، في أبعد نقطة تحت السلم، حيث لا يوجد طوب ولا يحزنون يمكن أن يعبر عليه من يريد استرجاعه.

حسبت بعد هذا أني لن أرى أقاربي الأحباء إلا بعد مدة أقلها يوم. أو ماذا كنت تظن؟ ذلك كان أقصى طموحي. لكن، ليس هذا ما حدث: اقد اتفقت مخاوفي كلها على تنكيدي، وخطف النوم من عينيّ، وكلها بعد عدة ساعات.

فقد اتصل ميخائيل بشكرالله ببيته في الثانية صباحاً، يصرخ ويولول في السماعة، ويطلب منه أن يوقظ البشمهندس الشاب جون قريبهم، لأنهم في أزمة شديدة جداً والعجوز تودع. فقام لك شكرالله في نشاط عجيب، وهو نشاط المشرف في المصائب والكوارث، فارتدى لك جلباباً جديداً ناصع البياض، ومسح لك على صلعته بماء الكولونيا، ثم نزل وهدفه أن يوقظني.

طرق على وهبة فوجده، بالروح، مستعداً ومستيقظاً. فصعدا معاً، سوياً يا إلهي، وهدفهما واحد، وقلبهما واحد، ونيتهما مشتركة في جعلي أقوم بخدمة أقاربي والرب في تلك الساعة.

استعمل وهبة مفاتيح البيت فاقتحما علينا الغرفة. كنت نائماً فوق السرير العلوي، منتهياً من التعب فلم أشعر. لكن كلها لحظات ووجدت لك نفزة عنيفة، غير غريبة تماماً عليّ، تكاد تخرم صدري خرماً. ففتحت لك عينيّ متشككاً، وإذا بي أشهد لك منظراً عجيباً: كانت صلعة المشرف تضيء بانعكاس نور الصالة عليها، فكأنها إكليل نوراني فوق الوجه الأسمر الضخم، وجلبابه الأبيض كان يضوي ضياً، فكأني أمام ملاك عملاق جاءني من العالم الآخر خصيصاً لمعاقبتي على نعاسي. أما خلفه في الظلال، عندك لصق الدولاب الإيديال المتآكل الذي حاولت تغييره مائة مرة وفشلت، فكان وهبة، ما تبقى من شعره يقف في شيطانية، ويضحك في خبث، وحالته حالة بظهره المنحني من كثرة 'الخدمة،' وبطنه المنفوخ.

وخاطبني شكرالله بصوت عظيم قائلاً:

'ولد يا جون، قم، أقاربك يحتاجونك هناك.'

ذهب فادي إلى الحمام ثم جاء ليكمل نومه، بينما نزلت أنا من السرير فاستبدلت لك ملابسي أمام إشراف المشرف وعروض العامل بأن يساعدني وقوله لي 'أي خدمة.' فقال له المشرف:

'يا حزين لا تقل أي خدمة مرة أخرى وحياة أبيك، العيال هنا ألفوا عنك أغنية.'

شكرالله هذا داهية: كانت بالفعل هناك أغنية قد ظهرت على لازمة العامل الشهيرة 'نحن في الخدمة،' تبتدئ وتكرر في 'عم وهبة، تيت تيت، أي خدمة، تيت تيت.' كما أن بسام تاوضروس، طالب بكالوريوس الطب، كان قد ادعى أنه حلم حلماً رأى فيه العامل يركب المشرف، والأخير يزعق فيه: 'خلصني يا وهبة!' فكان العامل يرد عليه: 'أي خدمة يا أستاذ شكرالله.'

وابتسم وهبة ابتسامة واسعة، كأن في مروءة يصعب وجودها في هذا الزمان، وقال:

'أنا في خدمة الجميع يا أستاذ شكرالله. وفي خدمة كل طالب من طلبة بيت الأنبا تادرس.'

'العبط له ناسه، العبط له ناسه يا وهبة.'

'هيء هيء هيء هيء، لا يهمك يا أستاذ شكرالله، على قدنا، هيء هيء، على قدنا يا أستاذ شكرالله.'

فلما انتهيت قادنا شكرالله في طابور جنائزي كأنه يعدني لـ'الواجب،' ونزل بنا السلالم المظلمة ساعتها لأن وهبة كان يطفئها كل ليلة حرصاً على مال الكنيسة الذي كان يسرقه شكرالله. فتح وهبة التراس والقفل الأصفر الكبير في راحة نفس وبهجة لأنه أيقظني فعلاً ونزلت، وقال لي وهو يفعل ذلك:

'إن عزت فلوساً فلا تنكسف. رحمنا الله جميعاً. آه.'

وقال له شكرالله:

'وخل بالك يا وهبة، ابق صاحياً، فلربما يأتي الولد ويأخذ غياراته ويصعد الجبل مع أقاربه، ها؟ ولو لابد، اعمل لك كوبين من الشاي مع الولد شريف، من تموينك يا وهبة، وإلا ما فائدة التموين كل شهر؟'

'نحن في الخدمة يا أستاذ شكرالله.'

خرج شكرالله وهو يشخلل بمفاتيحه، وخرجت خلفه فقال لي وهو يعطيني ظهره:

'لا تتأخر يا عريس.'

الفصل الثاني
القديس عبدالله.

كانت أم مينا هي من فتحت لي الباب. امرأة صبري. سيدة شاحبة، باردة البشرة، مع ذلك فسمينة (أقصد مترهلة، أعتقد أن مترهلة فعلاً هو أنسب وصف لها،) ودهنية الوجه بشكل زائد. قالت لي في خشوع:

'إنهم ينتظرونك بالداخل.'

كانت متدينة إنما من النوع الآخر (غير الدقرم،) الأرثوذكسي الصميم: كانت تحب لك أن تذهب وتزور كل الأديرة وكل هذه الأشياء، وكنت تجد عندها دائماً زيت القديس فلان، ورمل الأنبا علان، وشعرة من رأس أبونا لا أعلم من، أو حنوطاً من جسد القديسة أياً كانت. مرة واحدة دخلت لك منزلها، قبل سنة ونصف لآخذ كماشة لعبدالله، فوجدت نفسي كأني في هيكل قدس أقداس: الأرضية كانت مفروشة بموكيت أحمر كدم المسيح، والصور الدينية كانت تغطي كل نقطة في الحيطان، ورائحة البخور والحنوط، خلطة، كانت توج وجاً. لقد استغربت الأمر ساعتها لأن صبري منظره لا يوحي أبداً بذلك، فهو مجرد جرذ تافه، لكن ميخائيل كان من نقل إليّ تفاصيل حياة 'أم مينا جارتنا الممتازة،' كما أسماها. هنا يجب أن أقول أن ميخائيل كان يحب أم مينا، بطريقة ما: كان يحب أن يتكلم عنها طوال اليوم إن منحته الفرصة، وكان يمدحها، بهوس، حتى أمام زوجها صبري (الذي كان يفرح جداً بإعجاب رجل أعزب مثل ميخائيل بزوجته القبيحة.) لكن من الناحية الأخرى، كان يجعلها تصلي له كل يوم، ربما لكي لا يصلي هو بنفسه، ويرجوها أن تشتري له دائماً تذكاراً واحداً على الأقل من كل دير تزوره: ويستحسن أن يكون شيئاً

عملياً يستخدمه في حياته، مثل قلم جاف أو حافظة عليهما صورة قديس الدير أو علبة مخلل لذيذة أو برطمان عسل نحل من إنتاج الدير البركة، وليس صوراً أو أيقونات أو ما شابه، لأجل أن يتذكر القديس في كل لحظة، حسب زعمه، أو، من ناحية علبة المخلل وبرطمان العسل، لكي 'يمتلئ' من بركة القديس ويشفيه من أمراضه. كان أيضاً يقترض منها كل شيء، وفي كل وقت، معتمداً على عدم إمكانية رفضها طلباً له لأنه أعزب وضال ولأنها سيدة متزوجة كريمة ومتدينة، ولا أستبعد أن تكون علبة البن الأبدية إياها نفسها قد انتقلت ليد ميخائيل من أم مينا.

كانت سيدة طيبة جداً، لكن كان لها هذا العيب الخطير، الذي تجده غالباً عند كل الناس المتدينين: كانت تحب لك الاحتلال. كانت أم مينا تحب احتلال كل مكان، وكل شخص أيضاً.

لا أنسى أبداً، وهذه أيام لا أرجعها الله، الفترة التي حاولت فيها، كما نقول، 'الحلونة' على ابنتها جانيت. جانيت كانت طالبة هندسة تصغرني بسنة، وكانت جميلة وكانت مشهورة وكانت كل شيء. يا رجل مولانا نفسه، الشاب الذي لا تراه إلا وسبحة القدس الغريبة في يده (لا تأخذ مني هذه على محمل الجد، كانت لديه السبحة فعلاً لكنه كان يعلقها غالباً في حجرته،) الطاهر الذي قلنا عنه أنه لولا اختلاف العصر لأخصى نفسه بنفسه مثل العلامة أوريجانوس، لم يكن يحكم نفسه وهي عابرة. لكن جانيت كانت من ذلك النوع من الفتيات، لا أعلم حقيقة هل صادفته أم ليس بعد، المهم، كانت من النوع البارد جداً: كانت تهتم بأجرة الميكروباص أكثر من اهتمامها بشاب يكاد يُدهس تحت عجلاته هوساً بها. كانت تضحك لك وكل شيء، لكنها كانت تجعلك تشعر أنها ليست 'بنتاً' بالمعنى الذي رأيته من قبل. الغريبة أن البنت كانت لها شعبية رهيبة، بين الشبان والشابات، وكان الكل يسيل ريقه فقط لأن يقف معها، ولكي يتكلم معها كلمتين، هي لا تحسه فيهما. كانت جانيت متكلمة رائعة، فقد كانت تكلمك ببساطة شديدة، ليست لها

علاقة بأي شيء خارج نطاق حديث ودي بين إنسان وإنسان. يجب أن أقول أني وحدي الذي شك في هرموناتها.

المهم، أخذت لك فترة أتقرب من البنت جانيت هذه، ونجحت طبعاً، لأنها كانت 'عادي جداً.' كنت أرافقها أحياناً في الرجوع من الكلية فأشعر أني أرجع مع عمتي عماد التي كاد يغتصبها ميخائيل، وأكلمها فيرد عليّ أيمن البقال، وأسألها فترد على كتب الدراسة. كان وقتاً عصيباً والله، ليس بسبب أني كنت أنحرق منها أو أغتاظ، لكن لأنها كانت تسايرك وتمشي معك بانسيابية وطبيعية وبعد عن الأنثوية، فتشعر تماماً أنك وحدك.

عمتك أم مينا عرفت أني أصبحت 'زميلاً' لابنتها. يا سبحان الله، هكذا فجأة. أصبحت تزور شقة أقاربي خصيصاً لما أكون فيها لكي تحدثني عن جانيت والدراسة. ثم بدأ الأمر يلعب بعقلها، فبدأت لك مرحلة الوعظ. وعظتني المرأة حوالي أربعمئة وسبع وتسعين عظة، في كل عظة منها ألف موعظة، ولكل موعظة ملايين الأفكار الجديدة التي يمكن أن تدمر حياتك. أفهمتني أن السلام باليد حرام لأنه يمكن أن يوقظ الشهوة. ونصحتني كثيراً بمرحلة الصمت التي يصل إليها الرهبان المتقدمين جداً. وقالت لي أن كل وقت تعيشه ولا تفعل فيه شيئاً للمسيح هو وقت مُهدر كان يمكن أن تستغله في شيء آخر وبالتالي خطيئة عظيمة. وحكت لي كثيراً عن تاريخ المجامع المسكونية، والرؤى الإلهية، والمعجزات التي تحدث معها كل يوم، (حيث أن الرب بنفسه شفاها من السرطان قبل يومين.) وأهدتني أجبية كانت معي فأعطيتها لمولانا. وصارت تسألني باستمرار عن حالة الصلوات السبع التي أقوم بها في اليوم، فقلت لها مرة أني أصلي ثمانياً.

'ولكن، نحن لدينا سبع صلوات فحسب يا جون يا حبيبي...'

'هذا بالإضافة إلى الصلاة الأخرى التي أصليها أنا من نفسي.'

'أية صلاة هذه يا حبيبي؟'

'صلاة الستار، تلك التي يصليها الرهبان والأساقفة.'

ساعتها، شعرت أم مينا أنها لم تعد بند لي في الروحانيات، فتوقفت عن مضايقتي. وتوقفت أنا عن، ما يمكنني أن أطلق عليه، 'مزاملة' ابنتها جانيت. مع أني والله رحت أحن أحياناً لأن أتكلم معها، حتى ولو سمعت صدى صوتي. إلى هذه اللحظة أحياناً أحن لأيام جانيت. أما ميخائيل فقد انجن جنونه لما أخبرته أن جانيت لم تعد 'زميلة' لي فيما بعد. كان مستريحاً جداً للوضع بأني كنت 'أزامل' الابنة، بينما هو يرافق الأم. كان يرانا جميعاً زملاء في هدف واحد، هو تسليته لحين مجيء 'الضربة' التي كان ينتظرها لانتشاله، من كل شيء طبعاً.

في هذه الليلة، كانت أم مينا قد نجحت في احتلال على الشقة وتحويلها لنسخة أقل تقشفاً من شقتها في خلال ساعات. لم أكن قد غادرت الشقة إلا عند المغرب وبالكاد عرفتها. كانت الأنوار قد أُطفئت، المروحة أُوقفت عن العمل، الترابيزة الكبيرة في الصالة ذهبت لا أعلم أين، وحل محلها كرسي خشبي أقيم عليه سراج خافت جداً لم يضعف من قوة الظلام، وكانت رائحة بخور في الجو الخانق. رأيت جانيت ساجدة أمام السراج وأنا أتلمس طريقي إلى غرفة عبدالله وميخائيل. كانت غرفة عبدالله وميخائيل الغرفة الوحيدة المفتوحة. غرفة الأم كانت مغلقة وكانت معتمة من الداخل مثل القار كأن الأم ماتت فعلاً واندفنت في غرفتها.

لم يكن الباب مفتوحاً بالكامل لكنه كان مواربا. سمعت من قبل أن أدخل ضحكات صبري القصيرة، ثم دخلت، ورأيت ثلاثة أشباح. الأول منهم كان ميخائيل، جالساً على طرف السرير، والذي قام ما أن رآني، فاحتواني بين ذراعيه الشديدتين، وطحنني، ودمرني وهو يربت على كتفي، ثم بكى في حضني وهو يناجيني:

'هل أتيت يا جون!'

بالطبع كنت قد أتيت، فأخبرته بهذه المعلومة.

فابتعد عني ميخائيل وغاب وجهه في الظلام، ثم قال وهو يعتصر كتفيّ:

'ربنا يخليك لنا يا جون!'

'لماذا يا عم ميخائيل، وهل فعلت شيئاً يُذكر؟'

فقال صبري من الداخل بصوته المرح:

'يكفي أنك تنازلت عن نومك ومذاكرتك لأجل أقاربك يا بشمهندس.'

ثم تقدمني ميخائيل إلى الداخل، وعبرت بعده من المسافة الضيقة بين الدولاب الهائل والسرير، فأجلسني على كرسي بجانب صبري، كأنما ليطمئن عليّ، ثم بعدها رجع للسرير. وبدأت رحلة الآلام.

بداية ظهر أن السيد صبري كان قد حلف بحياة ابنه مينا إلا وأن يصهلل في هذه الليلة وأن يزيدها من التنكيت والفرفشة، بحيث يحول الأذهان طبعاً عن الموضوع المكدر وهو إمكانية وفاة الأم. فحكى صبري عن كل شيء. عن معركته مع مصلحة المياة بشأن تركيب 'بطارية' جديدة للشقة. وعن ابنه مينا المصاب باللوز والطبيب الرافض لإجراء العملية. وعن خاله تقي الذي كان يتبع رجلاً غنياً كظله وكان يشوف العفاريت. وعن المعمول الذي أتاه به ابن خاله من السعودية. وعن الفتاة التي خطبها في الأول وأفلتها لما شاف نرجس (أم مينا.) وعني أنا. وعن فاتورة التليفون الزائدة وخطه الذي سُرِق. وعن القمر الأوربي، وغيره.

وتابعه ميخائيل بعناية شديدة، محملقاً فيه كل لحظة، وهو يقول:

'هاه؟... أمعقول يا أستاذ صبري؟... هاه هاه هاه، يا سلام!'

أما أنا فكان رأسي يسقط مني فلا يجد أقل مقاومة من جسدي. كنت ناعساً تماماً، وكان عبدالله صامتاً كالحجر. في أغلب الوقت كان يعقد ذراعيه ويملس بإصبعه على خده في تفكير، وفي الوقت المتبقي كان يقرفني بتأوه لا داع له، أو بزفرة لعلنا نواسيه ونقول له: 'لا يهمك يا عبدالله،' أو بطقطقة من لسانه في سقف حلقه، أو بأن يحك مؤخرته في الكرسي ويصفق بصوت خافت، كأنه حزين المضروب. غيره فإن الأستاذ صبري لم يدعني أنام على الإطلاق، فكأنه كان يحكي لي خصيصاً، أو أنه أراد أن يواسيني أنا أكثر من الابنين لأني كدت أنتحر من الزعل على الحاجة المتحللة، أو أنه شعر بالإهانة فكيف أتهرب من سماع حكاياته المسلية،

فإنه أخذ كل دقيقتين ينبهني بيده، نغصة فررت النوم من عيني، فاختلطت لك كل العبارات وكل الحكايات المسلية التي سمعتها منه بأنصاف أحلامي. فأصبح لك مينا طبيباً في بدلة خضراء. ثم رأيته يحلق ذقني كالحلاقين، ثم يصل بالموس إلى فمي فيشقه من الناحيتين ليستخرج اللوزتين. وتزحلقت لك من على سلك تليفون عمك صبري كأني حرامي وسقطت. كما أن الأرض طاوعتنا، أنا وتقي عم عمك صبري، فبلعتنا حيّين في شارع مظلم غريب. وهز ميخائيل رأسه الكبير. وضرط عبدالله وضحك. وأكلت معمولاً كان مليئاً بالصراصير التي كنت أراها في مطبخ الشقة. ولقد مكثنا على هذه الحالة أكثر من ساعة، إلى أن زهق صبري نفسه من حكاياته، ومل ميخائيل منه. ثم جاء الأستاذ لوقا هو وامرأته، الدكتورة سعاد.

كانا يعيشان في الدور الثاني، وبالطبع كانا على علم بالحالة بأكملها من البداية. لكن العجيب يا أخي أنهما لم يختارا وقتاً أنسب للزيارة من الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، كأنها الثالثة مساءً.

لم تكن لي علاقة كبيرة بأسرة الأستاذ لوقا المكونة منه ومن زوجته ثم ابن لم أره، لكني كنت قد زرتهم في الشقة أكثر من مرة مع ميخائيل. وهذا فارق مثلاً بين لوقا وصبري: فالأخير لم أكن قد زرته سوى مرة واحدة ومع ذلك فعلاقتي به، حتى قبل جانيت، كانت معقولة. أما في حالة لوقا، فمهما كنت تزوره، كنت تخرج خالياً. لم يكن يهتم بك على الإطلاق، أو ينظر إليك حتى وهو يتحدث، لم يكن يأخذك مأخذ الجد مهما فعلت، لأنك كنت قصيراً وأسمر وصغيراً سافلاً في نظره.

إني أتساءل الآن ماذا كان يعمل ؟ لم أعلم على الإطلاق. كان رجلاً سميناً، فظاً، عنيفاً في تصرفاته وفي ملاحظاته وفي كل الكلام. كان يجز شعر رأسه مثل عبدالله، لكن شعره كان شائباً بالكامل، هذا من ناحية، ثم أن الشحوم كانت تملأ رقبته وقفاه، فكان رأسه ثابتاً هكذا في مكانه كالبومة، ولكي ينظر حواليه كان يضطر أن يلف بجسده كله، فكان ينظر إليك عندما تكون بعيداً عنه دائماً هكذا في قرف، لأنه قد عانى لكي يبص إلى سيادتك، إن كنت تستأهل هذا الشرف. كان رجلاً

مشهوراً جداً في المدينة، والسبب ليس كونه أجمل إنسان أو أفضل شخصية، فلم تكن له أي علاقة بذلك، لكن لعلاقاته الخاصة الكثيرة جداً والمتفرعة بما أطلق الدقرم عليه: الهرم الكنسي. كان يعرف لك كل أخبار الكنيسة، ويرافق الآباء الكهنة طوال الوقت، فعندما تزوره كنت تجد دائماً أباً كاهناً أو راهباً، أو حتى أسقف المدينة، الأنبا كيرلس. لا أحد يعلم كيف أو لماذا بالذات لوقا من سائر الخلق كانت لديه هذه الميزة، لكنه كان واصلاً فعلاً في الأمور الكنسية، فلا تتأكد من أقلها إشاعة، أو تطمئن على حال أبعدها كاهن في أزمة، أو تجهز أمورك على أن سيدنا سيصلي في الكنيسة الفلانية، إلا بكلمة من لوقا، الفظ، الثخين.

وكان يشبه الأستاذ ملقي في تصرفاته اللعينة، لكنه لم يكن يكرهني مثل الأول. كان لا يعلمني على الأطلاق. فإن سألته: 'جون...؟' يقول لك: 'لا أعلم،' أو لا يقول لك أي شيء. ولم أكن أكرهه مثل ملقي. كنت أتحمل لوقا بعض الشيء حتى وإن ضايق أهلي، لأني لم أكن مهماً إليه، ولم يكن يقطع في جثتي من أمامي ومن خلفي، وفوق هذا كله، كانت له امرأة أطلق Current عليها 'الوفيرة': كانت مهلبية بالقشطة، مليئة هكذا ومرجرجة وبيضاء، وكل ما فيها كان يهتز. كانت امرأة لوقا تذكرني بالأخص بـ'تيتا،' امرأة 'جدو،' والتي كنا نبصبص عليها هي وبناتها من بلكونة Current.

بمجرد أن وصل الأستاذ لوقا إلى باب الحجرة (بعد عناء شديد في جر جسده من عند باب الشقة، فقد كان يتحرك بصعوبة،) حتى دفعه بيده، ووقف كالعمل الرديء ساداً عنا النور الباهت القادم من السراج، فقال بصوته الغليظ:

'وجدت الولية لن تنيمني فقلت لها حلك أن نصعد لهم بالأعلى.'

فهتف ميخائيل:

'أصيلان أنت والمدام يا أستاذ لوقا!'

'ومن يظلم المكان هكذا، أفأحدكم يريد النوم؟ وأين أجلس أنا الوقت؟'

طبعاً يجلس مكان البشمهندس. وجدت اتفاقاً غريباً بينهم على هذا الأمر. قمت فعبر لك لوقا ببدنه السمين، من بين السرير والدولاب، كأنه طفل يعبر من رحم أمه. كان سيموت من الحشرة والدحم والقرف والاستنكار من هذا الدولاب اللعين الذي ينافسه في الحجم ويقفل أمامه الطريق. ثم نفذ أخيراً إلى وسطنا فجلس على كرسيّ وشهق فسحب الهواء من الشقة كلها. وبعد هذا قال:

'كيف أخبارها، الولية التي بالداخل؟ هه.'

جلست بجانب ميخائيل فقال ميخائيل بصوت مرتفع:

'فعلت فينا خيراً بإحضار أبونا بيتر يا أستاذ لوقا!'

'وما أخبارها الآن؟'

'ستكون بخير بإذن المسيح!'

ثم استدار ميخائيل لي وقال، عن أبونا بيتر هذا الذي لم أعلم من يكون ولا متى جاء:

'شاب ليس أكبر سناً منك يا جون، ولكن بسم الصليب عليه! ما أن سقى ماما من الدم المقدس، وناولها من الجسد الطاهر [أظن أن العملية تتم بالعكس]، حتى قامت ماما مثل الحصان يا جون! ووقفت على قدميها، وقالت لأبونا: سأوصلك حتى الباب!'

لماذا أتوا بي إذن إذا كانت أوصلته حتى الباب؟ وهنا قال صبري، بطريقة أقل مرحاً:

'لكنها أخذت، ولا أعلم يا أخي هل تهلوس أم ماذا، أخذت تقول أن أيامها قال قد كملت، وأنها تنوي زيارة أحباءها الذين لم تذهب لزيارتهم من زمان، و... وفقدت إيمانها تماماً!'

وهنا رجع عبدالله للدنيا فصرخ في صبري:

'أمي لم تفقد إيمانها يا صبري!'

'أعلم أعلم. هئ هئ هئ. إنما تكلمت بما خطر لي في بداية الأمر يا شيخ ليس إلا.'

ثم ربت على ركبة عبدالله لكي يراضيه، لكن عبدالله كان قد عاد لشروده من نفسه.

وقال لوقا:

'كان يجب عليكما، أنت أيضاً يا عبدالله، أن تتابعاها أسبوعياً عند دكتور. مجدي لا رجاء منه، اذهبا بها إلى باطني متمكن. مجدي أخصائي جراحة مسالك، لتذهبا بها إلى الدكتور شمشون.'

فصرخ ميخائيل:

'وألم أقل هذا يا عالم! ألم أقل هذا! قل لهم! قل لهم يا أستاذ لوقا، ما عاد أحد يستمع إلى كلامي في هذا البيت!'

وانحشر الجار الآخر في النقاش، فأفتى بلهجة الخبير:

'مجدي جيد، ولكنه يشطح أحياناً. وهذا ما يطمئنني. مرة قال لزميل لي أن حصوته لا علاج لها إلا بجهاز التفتيت، ولكنه لم يستمع إلى كلامه. وكلها ثلاثة أسابيع، مع البيرة وشرب السوائل وحياة عمرك، ونزلت من نفسها.'

قال ميخائيل:

'ولكن ماما ستصير بخير بإذن المسيح!... إن الدكتور مجدي بنفسه ركب لها قسطرة اليوم، وعاينها، وفحصها، ماما، وقال عنها أنها ستصير بخير إن شاء الله!'

فقال عبدالله في استسلام:

'وحياتكم لتبطلوا هذا الكلام. الست منتهية بالداخل ولن تلحق الذهاب لهذا أو ذاك.'

قال له صبري:

'يا أخي فأل الله ولا فألك!'

وقال لوقا:

'خل عندك شويا إيمان يا شيخ!'

ثم قال صبري أيضاً:

'والله ما سيميتها سوى كلامك هذا.'

أما ميخائيل فتفل له عدة كلمات متقطعة:

'عبدالله!... يا توما!... يا توما!'

عندئذ رفع لوقا ذراعيه وقال، مهدئاً الموقف العصيب (كانوا جميعاً تفهاء، في الحقيقة):

'كفى. هذا ليس أوان العراك. لنتكلم في شيء له لزوم... هل أخبرتم عادل؟'

أخذ بعد ذلك الأستاذ لوقا، وكنوع من التنويع، يشتم عادل ويذمه بكل قوة، ثم قال أخيراً:

'أما يزال يذكر أن له أماً! إنه مهندس في بني سويف يا عمي ويقبض بالشكائر، أفلا تداخله بعض الرحمة!'

فدافع ميخائيل عن عادل:

'يا عالم عادل غلبان، امرأته وانقطاع الخلفة...'

فقاطعه عبدالله وهو يمد له كفته:

'الخول كل كلامه كذب في كذب. لن تأخذ منه حقاً ولا باطلاً إن ماتت الست التي بالداخل.'

'ما هذا الكلام يا عبدالله...؟'

'هو ما أقوله لك.'

ساد الصمت لمدة ثوان. ثم قال صبري، محولاً عينيه الصغيرتين بين عبدالله وميخائيل:

'الحق يقال يعني، رأي الأستاذ لوقا هو كله الصحة.'

فتجاهل لوقا هذه المجاملة وقال:

'يجب علينا أن نفكر فيما سنفعله إن كان. [ثم مؤكداً بانحنائه عشر درجات، كأنما ليؤكد ليونته مع ذلك رغم السمنة والصدأ في مفاصله] ثم أن عادل لن يستطيع أن يأخذ مليماً من حقكما ما دمنا نحن موجودين.'

تساءلت وقتها، ألم يكن بإمكاني أن أرجع لوهبة فأزقه بخمسة جنيهات يصير على أثرها أوفى عامل في الدنيا ويحملني حملاً حتى سريري بالأعلى، ولا أستمع إلى كل هذا الكلام الفارغ؟ على أية حال تركتهم يتجادلون في أمورهم العقيمة ورقدت على السرير بجانب ميخائيل. ومع طول رقدتي بهذه الطريقة، نمت. لم أعلم كم نمت، لأني لم أنظر في الساعة قبل أن أنام. ولكني استيقظت مرتين. المرة الأولى لما جاءت جانيت بأكواب الشاي. فارق شاسع طبعاً بين شاي البنت وشاي عمك ميخائيل 'الحلو.' لكني لم أشرب من الشاي، ووضعته على الكومودينو ونمت. والمرة الثانية لما سأل عمك لوقا:

'كم الساعة الآن؟'

فسأل ميخائيل خلفه:

'كم الساعة!'

وقال صبري:

'كم الساعة الآن؟'

وتساءل عبدالله:

'ترى كم تكون الساعة الآن؟'

ظهر كأني الوحيد على كوكب الأرض الذي كانت لديه ساعة في يده وقتها. أيقظني ميخائيل بعدة ضربات على أم رأسي، حتى قمت مذعوراً. ثم قلت بعد أن نظرت في ساعتي التي كانت عقاربها تنير في الظلمة:

'السادسة إلا.'

'إذن فهذا يكفي، هيا نشوف أمورنا الآن.'

'نوقظها يا أستاذ لوقا؟'

'أم ماذا حسبت؟ كفاها حتى الآن هيا نشوفها حتى نشوف نصيبها.'

لم أعلم كيف كان بإمكاننا أن 'نشوف نصيبها،' ولهذا خرجت أول واحد لأرى كيف يمكنني أن أشوف هذا النصيب. كان السراج في الصالة ما يزال مشتعلاً، بفضل جانيت، فهي الوحيدة التي كانت تصلي على ما يبدو في البيت. أمها القديسة ذات السبع صلوات كانت نائمة وفمها مفتوح على كتف امرأة لوقا. كادت جانيت تحدثني بشيء لما رأتني لكني تجاهلتها ودخلت الغرفة المجاورة بدون إحم ولا دستور، ثم أضأت النور.

'ما قلة الأدب هذه؟'

هكذا تساءل لوقا من خلفي، كأنه فعلاً يسأل ويريد أن يعلم. لكني تجاهلته. دفعني لوقا ببطنه وزاحني من الطريق، وتقدم ناحية سرير الأم. كانوا كلهم قد تراخوا خلفه على ما يبدو ليسمحوا له بالدخول في المقدمة. أنا لم يكن لي اعتبار أني دخلت أول واحد، وكانوا كلهم يخافونه بطريقة ما، أو يستبشرون به خيراً لأنه 'رجل كنيسة،' ويرافق الكهنة والأساقفة طوال النهار.

الأم كانت نائمة فوق سريرها، وكانت كوفرتتها تغطيها حتى أعلى ثدييها. عن نفسي والله، رأيتها طبيعية. لكن الجميع حولي لم يروا مثلي. تفاجأت بكم الصراخ والعويل الذي صدر من الموجودين كلهم بمجرد أن 'شافوا نصيب الأم.' هل كانوا يتوقعونها أن تكون واقفة على السرير وتلعب كرة القدم مثلاً؟ لا أعلم. اندفع ميخائيل، متطوحاً، فرمى نفسه على الأرض بجانب السرير، وراح يبكي بلوعة في إبط أمه التي لم تتحرك. وكذلك فعل عبدالله (من الناحية الأخرى،) لكنه سرعان ما أخذ يشد أمه من كمها حتى مزق طرفاً من الكم فشاله صبري بعيداً.

هنا سألت جانيت امرأة لوقا من خلفي أن تتقدم وتعاين الجسد نظراً لأنها طبيبة. تقدمت امرأة لوقا فطلبت من زوجها أن يبعد ميخائيل (شده لوقا بأطراف

أصابعه كأنه يجذب خرقة وسخة،) بعدها أخذت تفحص الأم. بعد قليل هتفت كأنها مستغربة:

'إنها حية!'

ثم قالت وهي تجس النبض مرة ثانية:

'يجب أن تذهب لمستشفى حالاً!'

تعكنن زوجها لما سمع هذا، ولابد أنه كان يريد الذهاب للنوم مثلي، فقال معترضاً:

'أي مستشفى هذا الذي يفتح الآن ؟'

'كل المستشفيات تفتح الآن.'

صرخ ميخائيل:

'أستصير بخير إذن يا دكتورة!'

فقالت له الدكتورة وهي منشغلة باعتراضات زوجها: نعم.

'أستصير بخير!'

لم ترد عليه هذه المرة. ثم قال صبري، وهو يترك عبدالله الذي سقط في عالم آخر من التوهان والكلمات غير المفهومة، أنه سيذهب ليهاتف مستشفى سانت ماري القريب بشارع توفيق الحكيم حيث أن لديهم خدمة إسعاف ٢٤ ساعة.

كان النور بالغرفة قوياً، مقارنة بالعتمة التي تخللنا فيها لساعات طويلة، فتركت المكان وذهبت لأنعس لي دقيقتين فوق الكنبة بالصالة التي تركتها السيدتان. كانت دافئة، لكني لم أنعس. كان الشباك إلى جانبي مفتوحاً على بدايات النهار فأخذت أنظر إليه وأنا أتثاءب. وأخذت أفكر لك في هذه المدينة الغريبة التي أدرس فيها. بعد قليل رأيت جانيت تلم الأكواب التي تركناها في غرفة عبدالله وميخائيل، ثم بعد دقائق جاء أبوها. كان قد كلم الاستقبال في المستشفى وقالوا له: نحن آتون. فضحك لوقا:

'هه. وما له ؟ سيأتون في القريب العاجل إن شاء الله.'

فقالت له زوجته:

'هل تستطيع أن تلزم الصمت ؟'

صرخ عبدالله من عالم آخر:

'ماذا أفعل معه هذا الرجل النغم يا رب ؟'

جاءت سيارة الاسعاف بعد نصف ساعة أخرى. وصعد إلينا شاب نحيل، بشارب، يدخن له سيجارة، وقال أن السلالم ضيقة جداً وأنها، قال، لن تسمح بإصعاد السرير النقال، ولذلك، يجب أن ينزل أحدنا بجسد المريضة. فاختبأت لي في ركن مظلم جداً بعيداً بينما تم الاتفاق على عبدالله أن يحمل أمه، وعلى ميخائيل أن يمسك لها القسطرة البولية التي كانت تمتد من أسفل قميصها القديم الذائب، والتي رفعها ميخائيل عالياً جداً بشكل لا يمكن تخيله، فتأوهت الأم المغشى عليها والله، وهو ماشٍ هكذا بجوارها يتطوح ويسألها كل لحظة هل هي بخير أم لا.

كانت امتحانات أعمال السنة في منتصف نوفمبر. وكان وقتاً لا يوصف. أقصد بالطبع امتحانات أعمال السنة الفعلية، وليس تلك الامتحانات الوهمية التي كانت تُعقد منذ أواخر أكتوبر. لقد نسيت أقاربي تماماً في خلال تلك الفترة. لكن عندما تذكرتهم، وجدت أن ثلاثة أسابيع قد مرت بدون نبأ واحد عنهم.

سألت وهبة، لكن العامل كان حريصاً على ألا يمدني بأي معلومة بدون 'المعلوم، ' واستعنت بشريف، لكنه لم يكن يعلم حقيقة أي شيء لأنه كان مشغولاً بزواجه القادم وبأمر غريب هو وجود خصية واحدة لديه. وسألت شكرالله، فقال لي المشرف أشياء عجيبة: مثل أن الأم قد ماتت، أو أن ميخائيل قد سافر إلى إيطاليا أو أن عبدالله اختير قسيساً على بلدة في منفلوط. لكن الأخبار المؤكدة بلغتني من أم فادي، والتي كانت أعجوبة إخبارية. قالت لأمي أن الثلاثة في بني سويف عند عادل والمحصلة تقريباً كما هي: العجوز تُحجز في مستشفيات الكنائس من وقت للآخر ثم تجيؤها بعض العافية فتخرج، ثم تمرض فتُحجز مرة أخرى وهلم جراً. وعبدالله ركبته

في الأسابيع الأخيرة أمراض مختلفة ومتنوعة. وميخائيل أجريت له جراحة جديدة لإزالة الغدة النكفية الأخرى بعد الأولى التي أزيلت قبل أعوام.

وعلى أية حال فقد فوجئت ذات يوم بأن عبدالله قد عاد.

عاد بدون ضوضاء، في ثلاثاء من أواخر نوفمبر، ولم أعلم إلا بالصدفة، في نفس المساء من شريف.

كان شريف قد تزوج، وقال: 'والنبي قد رفعت رءوسكم!' مع أنه قد ترك امرأته بعد أقل من أسبوع ورجع للشغل في البيت. لم يفلح أحدنا في جعله يخبرنا عن السبب. كنا وقتها نظن أن الواحد منا لو تزوج لفجّر امرأته تفجيراً كل ليلة لمدة عام على الأقل. لكن شريف لم يفعل هذا، وأصبح يجلس مع حنان عند الأتيليه بحرية أكثر لأنه صار متزوجاً ولن يُقال أنه ينوي على شيء معها. كنت خارجاً مع فادي ومولانا وبطارخ، لما أوقفني شريف بضحكة وقال لي:

'ألم تسلم على عمك عبدالله يا عمي؟'

كنت حقاً أريد معرفة المزيد عن عبدالله، لكن لم تكن نيتي أبداً أن أسلم عليه أو أن أقوم له بزيارة، أظن هذا الأمر واضحاً. فقلت لشريف أني سأذهب له لاحقاً إن منع الموانع. لكن شريف قام من مكانه عند البوابة وقال لي:

'عمك عبدالله هنا من أول النهار.'

أخذني إلى غرفة وهبة في البدروم. كانت تقريباً أصغر غرفة في السكن، مثل تلك الغرفة الوهمية التي يحكي عنها شكرالله أنه بات فيها لما سيدنا أرسله للقاهرة، لكنها حوت، بقدرة الله، سريرين كاملين، وامتلأت بكل أصناف كراكيب وهبة الغريبة: كراتين ورق مطبقة، لفائف كثيرة من الدوبار، حبال، شكائر دقيق قديمة، أكياس فارغة، وخرق متسخة كثيرة، وبعض البلاط والسيراميك من بواقي الشغل في البيت من السنة قبل الماضية، وكل ما لا يخطر لك ببال. كان عبدالله جالساً فوق السرير البعيد، فوق مخدته، وجهه ناحية الحائط وكان يثني ركبته

ويسند عليها كوعه، وكان يرتدي بيجاما قديمة كأنه في بيته. سعدت به في الحقيقة، ودخلت وأنا أحتفل:

'عم عبدالله!'

لكن عبدالله بدا عليه أنه تضايق لما رآني. فقام في نكد واضح ومد يده لي قائلاً:

'كيف حالك يا بشمهندس؟'

لكني لم أستطع مصافحته، فقد كانت يده تهتز اهتزازاً عجيباً وهي ممدودة. ويبدو أنه أحس بالحرج من نظراتي، أو شعر بالإحباط فجأة، فرفعها إلى رأسه لعلها تتوقف عن شرها. فلم تتوقف، لا هي ولا اليد الأخرى.

وعاد شكرالله يستمتع بالكلام في الموضوع الذي ابتعد عنه أسبوعين كاملين، فكم من مرة احتجزني وأنا خارج أو داخل ليقول لي كلاماً كثيراً متضارباً، ولينصحني نصائح عكس بعضها البعض.

ومرة يقول:

'الشلل الرعاش مرض لا دواء له. حل قريبك في دار مسنين تابعة لسيدنا.'

ومرة يقول:

'سأزوجه بنت وهبه يا عمي، ولكن عليه أن يضمن لها شقتها. يشتري من إخوته شقة أبيه ويكتبها باسمها. هاه؟ وتعتني به وتغذيه وفي آخر كل ليلة يركبها، وتمام التمام.'

ومرة يقول:

'أفيقول أنه يريد الزواج؟ وهل المجنون يتزوج يا عمي؟ هاه؟ أم أنا مخطئ؟'

أما 'الدكتور' عجايبي فأخذ يزورني كثيراً، حتى في ليالي الامتحانات، فيطمئن أولاً لمدة نصف ساعة عن الحال والأحوال، ثم يسألني الرجل المهتم: هل

سألت على قريبك يا بابا؟ وما رأيك في حالة عبدالله أنت؟ وعبدالله قريبك من أي ناحية؟ ثم يختم بـ: 'هل تريد شيئاً يا حبيبي؟ إذن فشد حيلك، تصبح على خير.'

أقام عبدالله في بيت أبيه بضعة أيام. اشترى دِشاً وجهاز استقبال ماركة سترونج، ورقد أمام التليفزيون الجديد، ونظف الشقة. لكنه سرعان ما استوحش الوحدة. فعاد ثانية إلى البيت، وإلى حضن وهبة. وعلا شأن صداقته مع العامل الأعور حتى قيل أنهما شاذان. كان عبدالله يخرج معه أول الصبح ليرافقه في حملة العيش اليومية، ثم يجيء حاملاً فوق رأسه الذهبي شبكة أخرى من العيش الرملي، الذي كان يتساقط منه مع كل خطوة فيلتقطه وهبة بدون تذمر. وكان يحاسب له أحياناً على أثمان العيش، لولا أن وهبة وجد أن عبدالله، بنيته أن يعقد صداقات مع كل طلاب السكن، كان يهدي ويجامل بدون أن يحسب أو يدفع عمن يجاملهم. وكان يقضي مع وهبة أغلب اليوم، فإن ذهب وهبة للعمل في شقة مجدي، ذهب عبدالله أيضاً وقاوح في الدهانات وفي تركيب أسلاك الكهرباء في الشقة، ولم يكن يحصل على حساب. وفي آخر الليل كان ينام مع وهبة، وكانت أحاديثه إلى العامل النعسان، وشروحاته عن كل صغيرة وكبيرة في حياته الماضية، ترن رناً في المنور في منتصف الليل، فيسمعها السكن كله.

وترسخ داخل عبدالله الاحساس أنه سيموت في القريب العاجل. فكان يقول لي لما أجلس إليه:

'أخاف أن أموت وحدي يا جون!'

فكنت أطمئنه وأقول له أن هذا لن يحدث. ثم أن الشقة قد هجرها وعاش وسط الناس فعلام الخوف؟

'ثم أن الموت ما يزال بعيداً يا عم عبدالله، فالق همك على الرب وهو يعولك.'

ولم يعز عبدالله تشجيعاً في هذه الناحية، فانتظم في حضور القداسات والاجتماعات، وأصبح يقرأ كثيراً في الكتب الروحية (وإن كانت مشكلته هي تثبيت

الصفحة بوجه خاص،) ولم يكن يفوت صلوة. فتجده يستيقظ في الفجر قبل كل الناس ويقف في حجرة الإدارة، وبيده الإجبية، فيصرخ بصلاة باكر ليوقظ السكن كله. وبالأخص بسام تاوضروس الذي كان يسكن، مع باقي طلبة طب، مؤقتاً في شقة الإدارة بسبب الامتحانات النهائية التي كانت ممتدة في عام جديد. فكان عبدالله يوقظه قبل الكل، إذ كان بسام ساكناً في غرفة إلى المنور تعلو غرفة الإدراة مباشرة، مما دفع بسام لأن ينزل ذات صباح ويزعق فيه، حتى بكى عبدالله. أم في المساء، فكنت تجد عبدالله انتظم معنا في صلاة النوم وأخذ يردد المزامير وقطع الساعة بصوت عال، مثيراً حوله مهرجاناً من الضحك.

وبعد أسبوعين، أقر عبدالله بحذر أن لديه علة أخرى غير الشلل الرعاش، وهي مرض غريب بالقلب لا يدري اسمه ولا وصفه، أخبره به طبيب في بني سويف. فثار عجايبي وصرخ فيه:

'أنت تقتل نفسك بإهمالك يا عبدالله!'

ثم صعد إليّ، فطلب مني أن آخذ قريبي إلى مستشفى سانت ماري فوراً، وإلا:

'فذنبه في رقبتك!'

نزلت في مساء ذلك اليوم وخبطت على شقة الإدارة. ففتح لي أنطون كمال، الشاب الأحمر الوجه من الأقصر. فسألته أين 'الكبير، ' فأشار إلى أول حجرة. كان الكبير هو اللقب الذي يناله، تباعاً، أكبر الطلبة سناً في البيت، أو بمعنى أصح الطالب الذي نحدد نحن أنه من يستأهله من الطلبة الأكبر سناً. وكان قد حصل عليه ميشيل جورج في بداية العام. كان شكرالله قد نقل طلبة بكالوريوس الطب القدامى إلى شقة الإدارة بعد أن امتدت امتحاناتهم إلى بدايات السنة الجديدة للطلبة الآخرين، وذلك بعد عناء طبعاً وبعد ألف مكالمة مع سيدنا. وكان قد وضع لهم ألف قانون ليتبعوه: مثل عدم إدخال أي شخص غيرهم إلى الشقة (التي يرتاح بها سيدنا شخصياً لما يزور البيت،) وعدم وجود أي آلة كهربية تسحب من العداد، وعدم

استخدام بوتاجاز الشقة للحفاظ عليه نظيفاً، وعدم دخول الحمام من أساسه، إلى آخره. لكن مع تعيين مشرف جديد من طرف سيدنا، هو الأستاذ عماد (شاب أسمر غائر العينين من المنيا لم يكن يكبر الكبير بعام، قالوا أنه التمهيد لرحيل شكرالله،) تراخى طلبة الطب في تنفيذ تلك القوانين لأن الأستاذ عماد كان نفسه غير مقتنعاً بها، ولأنه كان يحاول أن يكون رأسه برأس شكرالله.

من ناحية المشرف فلم يكن البيت دائماً بدون مشرف ثان. فمثلاً لما قدمت أنا للبيت، في أول سنة لي، كان هناك مشرف إكليركي يدعى الأستاذ فام. كان الأستاذ فام من محافظة غريبة في مصر هي محافظة كفر الشيخ، ولم نكن نعلم أن بها مسيحيين، وبهذا فقد كان شاذاً عنا في كل شيء، ولم يكن يشبه أي كاهن (مستقبلي) نعرفه. كان رقيقاً جداً ويحب سماع قناة الموسيقى على الإف إم كل ليلة، وأسلوبه في التنكيت كان يوقف الدم في العروق، كما كان على ما يبدو وطنياً بصورة مَرَضية من بعد أن دخل الجيش وقضى به ثلاث سنوات، فكان يعلق لك في حجرته علماً مصرياً كبيراً يكلمه كل لحظة بالنيابة عن البلد الذي يمثله ويقول له: 'لماذا أنت قاس علينا يا سيدي؟' أو غيره. كما كان لا يحتمل أن يقول أحدنا 'ينعل أبا هذا البلد،' فكان يمسك الخائن من كوعه ويسأله: 'ماذا قلت؟' ثم يأخذ اسمه وبياناته كأنه سيبلغ بهما الجهات الأمنية. مع أنه في الغالب كان طيباً ولم يكن يفعل شيئاً. لكن فام لم يعمر، لأن شكرالله تغدى به قبل أن يتعشى به، ولفق له عدة شكاوي من طلاب لم يوجدوا على الإطلاق، أو وُجدوا لكنهم لم يشتكوا، فتم طرده. ثم أتى مشرف ثان آخر هو الأستاذ كمال، لكنه لم يتم شهره ورحل من نفسه: كان رجلاً سميناً ضخماً يشبه رمسيس (مستأجر شق الحيط) ولم يكن يعمل على الإطلاق، إنما كان يشتري جرائد الأهرام والأخبار والجمهورية كل يوم، ويقرأها كاملة، ثم يشتري من وهبة العيش بأغلى مما كنا نشتريه نحن، وبعدها ينام. وقد رحل لأنه افتقد حضن امرأته، كذلك لأن السرير الذي كان ينام عليه عند وهبة (شكرالله لعب به أشد لعب، ذلك الجدع،) والذي أصبح ينام عليه عبدالله بعد ذلك، كان صغيراً

جداً على مقاسه. وبعد هذا لم يأت أحد حتى جاء الأستاذ عماد، نجدتنا المتأخرة، أو هذا ما ظنناه.

كان ميشيل جالساً على كرسيه يأكل، وكان بسام مفروداً على السرير. فحكيت لهما قصة عبدالله، فجف ريق الكبير وهو يأكل، ثم قال بتحرج أنه لن يستطيع الكشف عليه لأنه ليس أخصائي قلب وكل ذلك. لكني قلت له بصراحة:

'من الآخر، ليست معي أي فلوس له.'

نزل الكبير معي إلى البدروم، وفرح به عبدالله جداً، ثم فحصه ميشيل بالسماعة على كل جزء من جسده (حتى قضيبه،) وقاس له الضغط، ثم عاين بعض الأوراق من بني سويف، وأخيراً قال:

'بصراحة يا عم عبدالله، ما معي هنا هو مجموعة روشتات قديمة، فتحليل دم عادي ليس به شيء مهم، ثم تقرير أشعة تليفزيونية على البطن لا يهمنا في شيء.'

فسأله عبدالله وهو يقترب منه بوجهه:

'أولم تتمكن من استكشاف أي شيء بالكشف إذن؟'

فقال وهو يحك فوق حاجبه:

'بصراحة لا... يجدر بك أن تذهب للكشف عند الدكتور قناوي محفوظ بعمارة الأوقاف يا عم عبدالله.'

فقال له عبدالله في خيبة أمل:

'لا يهمك، لا يهمك، سأكشف حين أسافر في بني سويف.'

ولم يكشف عبدالله عن هذا 'الحين،' كما أن شكرالله لم يكن يأخذ منه إيجاراً مما أرخى من عزيمته في السفر ولم يذهب.

وجد عبدالله راحته واستقراره في البيت. هنا لا يقلق على أحد مثلما كان دائم القلق على أمه، ولا أحد يحتقره هنا مثلما كان ميخائيل يفعل، كما أنه أخيراً قد ابتدأ يصاحب ويندمج في المجتمع الإنساني الذي قضى عمره كله خارجه. لم ينقطع عن سيرة الزواج بل إن الأمل لم يحضره حقيقة إلا هنا، ولم تكن تراه مكشراً أو شاكياً

أبداً. وامتدت بينه وبين أناس عديدين صلات ومودة. مثل ابن خالة ميشيل جورج الذي كان يأتي من الأقصر في ليلة كل يوم أحد ليسلم طلبية عدسات لاصقة من الأقصر. كان عبدالله يقعد معه طول الليلة التي يبيت فيها الفتى الضئيل، ويأخذ في نصحه نصائح مفيدة عن العمل والكفاح، خاصة لما سمع أنه ولد واحد ينفق على أربع بنات وأم أرملة. حكى له كثيراً عن شغله أيام زمان في الاسكندرية على المراكب، وقال أنها كانت أجمل أيام عمره، لأنه كان شاباً وكان يكسب لقمته بعرق جبينه، ولأنه تعرف على أناس طيبين في مستويات هو لم يعد يراها الآن بعد أن كسب ميراثه. لقد شعرت بالغيرة حقيقة بسبب صداقة قريبي بالفتى، ولذلك كنت أحضر تلك القعدات الطويلة وكنت أنام في الآخر في غرفة المبيت. وكان عبدالله وهو يحكي يتحرك بكثرة في جلسته لأن يديه كانتا ترتعشان بشكل مخز، فكان ينكسف عندما ننظر إليهما ويبص في الأرض ويصمت.

لكني استطعت أن أسترجع علاقتي القوية بعبدالله بفضل مكوثي معه لساعات طويلة، وكانت من نتائج هذا مصلحة للأسقف: لأن عبدالله قرر أن يسترجع بدوره عادة قديمة جداً كانت له في أثناء فترات عقله الأولى (التي كانت طويلة حينما دخلت أنا البيت،) وهي أن يبعث لأمي بمبلغ مائة جنيه تشتري بهما دقيقاً وكموناً وتخبز للأسقف قرقوشاً بكمون، مع أن الأسقف لم يكن يأكله في النهاية وكان يحوله لإخوة الرب.

ولم يكشف عبدالله إلا بعد فترة أن مرضاً جديداً قد صار لديه، وهو ورم بالخصية ظهر بالتدريج مع قعدته بالبيت. لقد تحاشى التفكير فيه أولاً إلى أن وجد أنه تضخم بشكل خطر وأنه صار يؤلمه ويتدخل في سيره وحركته، عندها أخبرني. وبدوري أخبرت الكبير الذي نزل إليه مع بسام وأنطون. وفحصوه، فقرروا أنه سائل بالخصية وأن لا علاج له سوى بالجراحة. لكن عبدالله هز دماغه الكثيف العنيد وقال:

'لا يمكن.'

ثم ذهب للكشف في مستشفى سانت ماري ففحصه طبيب غريب، قال عنه عبدالله أن عينيه كانتا رماديتين بشكل فاتح جداً، فوصف له دواءً أغرب جعل الخصية تفش. حتى أن طلبة الطب ضربوا كفاً بكف، وحتى أنهم شكوا في صحة المقررات. أما عبدالله فقد شعر عندها أن الأوان قد حان إذن ليرجع لشغله في الضرائب، لكنه بعدها، دون أن يذكر أسباباً، حملني بمسئولية إرسال تلغراف كل ثلاثة أيام، من سنترال شارع الدمرداش، لمد إجازته المرضية لمدة شهر آخر، ولا أخفي أني خنصرت من ثمن التلغرافات قليلاً.

ومن أصبح عندك في الشارع لا يعرف عبدالله ؟ الكل صار يعرفه. قد انزالت صورة عبدالله المجنون، عبدالله هزأة الشارع، عبدالله 'الشمس،' وحل محلها جميعاً عبدالله العاقل (إلى حد كبير،) وقد طالت فترة 'صحته' هذه المرة فلم يدخل في دوامة جديدة من دوامات الماليخوليا.

وأكان أهله إذن السبب في مرضه ؟ هذا ما بدا لي، مع أنه بدا محزناً وباعثاً للنكد أكثر من عبدالله الآخر (المجنون المضحك.) وقد فكرت فعلاً: لماذا لا أزوج عبدالله فيحظى في أواخر عمره ببعض الهناء ؟ كنت أفكر في المسألة جدياً، وأستعرض أمامي العوانس المرشحات من عائلتنا ومعارفنا، إلى أن جاء يوم ونفضت عن مخي كل تفكير في هذا الأمر، بل وندمت أساساً على تقوية علاقتي بعبدالله وعلى حمايته في السكن من الأوباش.

في هذا اليوم، كان عبدالله قد تشاجر شجاراً مهولاً مع حمص ابن القمص. كان حمص من بداياته مكروهاً في السكن. كان طالب صيدلة، ومتكبراً جداً، وكان يعاند قبالة أي شخص يحصل على أقل ميزة في السكن، لأنه اعتقد أن ابن القمص يجب أن يحصل على أفضل الأشياء دائماً. وكان عبدالله قد صاحب السكن كله طبعاً، لكن كانت له علاقات قوية ببعض الشخصيات المعينة، أغلبهم في الواقع كانوا من أشد المستهزئين به، وكان حمص من ضمن تلك الشخصيات. كان عبدالله الرجل البالغ يعتبر أولئك الشبان الصغار 'أصدقاءه،' فكنت تراه دائماً، إذا لم يكن

مع وهبة، في غرفة أحدهم. وقد حدث في هذا اليوم، أن حمص كان يستضيف شاباً مخلولاً من طلبة صيدلة القدامى اسمه عماد أسعد. كان حمص يتكلم مع عماد عن مسابقة كنسية قد شارك بها أبوه فوضع لها قسم 'الطقسيات،' وقد أخذ حمص يمدح أباه، ويقول شعراً فيه، وادعى أنه أنصح من الأسقف ذاته لأنه يعرف كيف يتعامل مع غير المسيحيين، وكان عبدالله يقف عند الباب فسمع كل شيء. بالطبع لم يكن عبدالله ليدع أي إنسان، أياً كان، يهين أسقفه حبيبه. لكنه عند حمص تهاون قليلاً في رد فعله، فاستكفى بأن نبهه إلى وجوده قائلاً:

'ينعل لك أباك هذا.'

وقامت القيامة. في البداية التفت حمص نحو الباب كأنما ليتأكد أنه لم يهيأ له. فلما وجد عبدالله يقف مكانه، بل وكرر الجملة، قلع له الشبشب في لحظات فضربه به. عبدالله رغم كونه عجوزاً ومريضاً بمختلف الأمراض لكنه كان متيناً ولا ننسى أنه كان ثقيل الوزن وأنه لف ودار، أي أن صبياً، حتى ولو كان منفوخاً مثل حمص، لم يكن بالنسبة له شيء. ضرب عبدالله حمص أيضاً بالشبشب، وتفل في وجهه عياناً بياناً، وشتم أباه بأقذر الألفاظ، ثم أبعدوا بينهما بصعوبة وحمص مصمم على أن يطرد عبدالله إلى الشارع، وعبدالله يتكلم كلامه الغريب الذي ليست له صلة بالموضوع.

وقفت مع عبدالله في مساء اليوم لأهدئه وأطيب خاطره، ولأستفسر أيضاً عن محتوى الخناقة بالتفصيل لأني كنت أنوي أن أضرب حمص. كان قد ارتدى ترنج رمادياً جديداً، واستحم وحلق ذقنه، فكان يقف معي يرفع يده كل لحظة بالسلام لأي واحد من معارفه الذين يدخلون البيت، هكذا منشرحاً جداً، متباهياً بكماله وجماله. بالطبع لم أشك لحظة في عدم رحيله، لأنه كان بالنسبة لشكرالله مزاجاً لا ينتهي وتسلية يستدعيها في أي وقت، ولم يكن ليترك الأسقف نفسه يرّحله. قال عبدالله وحكى إلى آخره، متفرعاً من لحظة لأخرى إلى مواضيع أخرى، ثم فجأة قال:

'المتعوس في بني سويف أجرى لنفسه عملية أخرى!'

استعجبت لأني لم أكن أعلم أن ميخائيل (محل الحديث طبعاً) كان بإمكانه أن يعمل عمليات لنفسه. لكني صبرت وأنا أستمع إلى الباقي:

'فرصة يا عمي طالما عادل هو من يدفع! وهنيئاً لك يا بهيم طالما وجدت بهيماً أبهم منك! وسترى يا حبيبي نتيجة كل هذا في النهاية، فلربما يموت ويريحنا منه!'

وكله إلا هنا، فلم أعد أسعى لصحبة عبدالله بعدها، ولم أتدخل في شئونه على الإطلاق، ولعنته ولعنت أباه، لأنه أهان ميخائيل.

بعد أيام، فيما بعد الظهر، حدث أن شخصاً مجهولاً اقتحم السكن، فنط فوق السلالم المؤدية للدور الأول نطاً، وأزعج الكل بخبطه غير المعقول على باب شقة الإدارة، وبضغطه بدون انقطاع على زر الجرس. كان وهبة وقتها في حجرة الإدارة يؤدي دور مشرف السكن، فنادى للدخيل باحتقار:

'أنت يا كابتن!... أنت يا كابتن!'

لكن الدخيل لم يهتم به. فغادر وهبة مكانه وهو يستغفر الله ويهدئ من أعصابه. كان الدخيل شاباً ممشوق الجسم، داكن البشرة، لبسه جميل، شكله هكذا يوحي بأنه ابن ناس. وتوقف وهبة عند أرضي المدخل، ثم قال للغريب وهو يعوج رأسه ويشير له بيده إشارة قد تعد وسخة:

'انزل هنا لو سمحت وتعال كلمني.'

'أين الأستاذ عماد؟ نريد الأستاذ عماد.'

'الأستاذ عماد غير موجود. تعال كلمني هنا وقل لي ماذا تريد.'

كان العامل يكذب، وحسناً فعل الغريب لما تجاهله واستمر في الطرق على الباب بدون انقطاع. وإذ أصبح الموضوع شعبياً، فقد تجمع لك بعض الطلبة من الدور الأول، وخرج عبدالله من جحره ليشمشم. كان في بيجامته الكستور القديمة، ويبدو عليه أنه تواً قد استيقظ من نعاس. فتقدم نحو مستوى الدور الأرضي، حيث

البوابة، ثم فوجئ به الجميع يصرخ بكل قوته وهو يتحرك يميناً وشمالاً ويرفع يديه المضطربتين إلى دماغه وهو ينظر إلى الخارج:

'سيدنا جاء! سيدنا جاء يا وهبة!'

فصحح له الغريب وهو مستمر في طرقه:

'سيدنا في الدير، لكنه سيبيت في البيت الليلة.'

'ألم أقل لك! ألم أقل لك يا وهبة أني حلمت به!'

رجع عبدالله فوراً لغرفته ليحلق ذقنه ويغير ملابسه، أما الطلبة فقد انطلقوا أيضاً لباقي السكن لينقلوا البشارة المفرحة. وإذ صعد لك عمك وهبة إلى الشاب الغريب (الذي اتضح لاحقاً أنه أخو الأستاذ عماد،) تبدل وتحور يا أخي في لحظات، فقال في أدب جم:

'يا مرحب. يا أهلاً وسهلاً. لا تقلق، إن مفاتيح البيت ها هنا كلها معي، سيدنا لا يتركها إلا معي. هئ هئ هئ... وما اسم الكريم؟'

فتجاهله الشاب قائلاً:

'ألا يوجد أحد بالداخل أم ماذا؟'

قال وهبة وهو يدفع الباب:

'العلم عنده هو. كله بعلمه.'

كانت سيارة الأسقف، البيجو ٥٠٥ البيضاء، قد ركنت على الناحية الأخرى خطوتين قبل المسجد. وفي خلال دقائق، اندفع عبدالله من البيت بكامل نظافته، متأنقاً في بليزر بني قيم، فاتجه نحوها. كان هائماً في دنيا أخرى، لأنه سأل السائق الأصلع القصير بالداخل كالملحوس:

'أسيدنا هنا، هاه؟'

فنفي له الرجل بهزة من دماغه، وأخبره أن سيدنا لم يجئ بعد. فلم يسمعه عبدالله، ورجع للسكن جرياً لعله يجد الأسقف بالداخل. صعد للدور الأول فوجد باب شقة الإدارة مفتوحاً. تقدم على أطراف قدميه ثم دخل أول غرفة. كان

هناك سريران مفردان وشخص نائم يغطي جسمه بالكامل على الأيمن منهما. لابد أنه حسبه الأسقف، لأن ميشيل عندما عاد من الخارج وجد عبدالله يخطو كاللص ناحية النائم ويده المرعوشة تهم برفع الغطاء. على حسب ما قاله لي فإنه خشي أن يقوم بسّام من نومه فيقتل عبدالله ببساطة. شد الكبير عبدالله بسرعة من ياقته فسأله عبدالله في هوسان:

'أسيدنا هذا، هاه؟'

'سيدنا في الدور الخامس يا عم عبدالله، هيا رح أدركه.'

فصعد عبدالله للخامس بقوة الروح القدس.

وصل الأسقف متأخراً يومها، ومتعباً جداً. بدا عليه الإجهاد بصورة لم نرها من قبل، وحتى ظهره المفرود انحنى قليلاً. قال مولانا أنه بسبب فتاة في أطراف البلد 'غارت،' لكن الأحذق منه قالوا أنه بسبب السكن. كان شكرالله في مكانه عندما حضر سيدنا، في أفضل جلباب كاكي لديه، مضبوطاً كالساعة خلف مكتب الإدارة. وكان الدكتور عجايبي مستعداً ومتأهباً بكل ما على الحبل، عاقداً كفيه خلف ظهره عند البوابة. وحتى وهبة حلق ذقنه وقصقص لك شاربه. وما أن أتى لك الرجل الكبير حتى انلموا عليه كالحشرات. قبل شكرالله الأيادي في إجلال وخشوع عظيمين، وتبعه عجايبي وضحك مع الأسقف، وغرد عبدالله:

'حلت علينا البركة يا سيدنا!'

ثم جاء وهبة يزحف على الأرض كالمفلوج، فلم ينتبه له الأسقف وصعد لشقة الإدارة مع الأستاذ عماد قائلاً أنه يحب أن يرتاح.

تم طرد طلبة بكالوريوس الطب من الشقة لأن سيدنا كانت معه صحبة، فتشاجروا مع شكرالله الذي لم يرد عليهم بكلمة لأنه كان في هم عظيم. أما عبدالله، فظهر أنه لن يهدأ أبداً وسيدنا موجود في البيت: أخذ يحوم، ويلف حول شقة الإدارة، ويسأل كل ثانية عن الأسقف، في لهفة وهوس وبعد عن أي سلوك طبيعي. لكن لم يُسمح له أبداً بدخول الشقة أو معرفة ماذا كان يدور خلف أبوابها المغلقة

(وما أكثر الاجتماعات السرية التي عقدت في هذ اليوم!) فركن بجانب شكرالله. ولأول مرة لم يكن شكرالله في مزاج رائق له والأخير يجلس بجانبه على السلم يدوش دماغ أهله بكلامه العجيب.

ثم تم الإعلان (عن طريق حمص ومولانا) عن أن سيدنا سيقود الصلاة الليلة. ففرح الجميع، حتى أنا فرحت والله، ونزلنا قبل الميعاد بربع ساعة نحجز الأماكن. وكالعادة حصل حمص على مركز القيادة، فأخذ ينبه علينا بوجوب الهدوء أثناء وجود الأسقف، وعدم التذمر من طول الصلاة (إذ سيصلي الأسقف صلاتي الغروب والنوم مجتمعتين.) ثم رنمنا ترنيمتين حتى ينزل الأسقف. فلم ينزل. فأرسلنا له مرسالاً، فنزل وقال أن سيدنا قادم. فرنمنا ترنيمة أخرى، قرب نهايتها حضر سيدنا.

من البداية بدا ملحوظاً أن عبدالله كان ينوي على شيء ما. لقد نزل للقاعة من ضمن أوائل الناس، والتصق بالجانب الأيسر تحت صورة الأنبا بولا وأغمض عينيه بعنف، ثم أنه أخذ يردد بشفتيه بعض الصلوات السرية، في انفعال بالغ، كأنه يتشاجر. أما لما نزل الأسقف، فقد أسلم له نفسه تماماً: حملق فيه بكل كيانه، وعوج رأسه له حينما كان في المؤخرة (الأسقف سمح باستكمال الترنيمة لغاية آخرها وبقي مكانه في اتضاع،) ثم عدله لما أصبح في المقدمة، ويبدو أنه لم يكن يرمش إطلاقاً وهو ينظر ناحية الأسقف.

تساءلت ماذا ببال قريبي، وخفت والله أن يفضحني بتصرف غريب يجعلني في نصف هدومي. وصدق ظني فعلاً لما انتهت الصلوة، وتمت قراءة السنكسار فالإنجيل، ورنم سيدنا ترنيمة 'يا يسوع يا غالي، على جبل عالي،' فوجدنا عبدالله ينطلق نحو الأسقف فيقبض على أسفل ردائه ويسجد تحته ويقول:

'لن أتركك حتى تصلي لي!'

عمت القاعة لحظات ثقيلة من الصمت، مع بعض الفكاهة، وشعرت ليس أني في نصف هدومي، بل كأني بدون هدوم أساساً. واحمر وجه الأنبا أغاثون وهز عبدالله برجله وقال:

'هيا، امش يا عبدالله.'

'لن أتركك حتى تصلي لي يا سيدنا!'

'يا عبدالله كفى، هيا امش!'

لكن عبدالله كان يتشبث برداء الأسقف أكثر وأكثر، ولم تكن من طريقة لفك الأسقف عنه (إلا بضرب عبدالله على رأسه ربما، كما اقترح أحدهم بجانبي.) وانلممنا جميعاً حول المشهد، وشد الأسقف جلبابه وزعق في عبدالله:

'يا عبدالله كفى جنوناً هيا دعني!'

لكن عبدالله تشنج ولم يترك الأسقف. وهنا رقت بعض القلوب، فقال حمص للأسقف:

'لماذا لا تصلي له يا سيدنا؟ إنه غلبان.'

وقال مولانا وهو ينظر إلى عبدالله، بملابسه المعطرة، عند قدمي الأسقف:

'غلبان يا سيدنا.'

ثم وجد البعض الآخر شجاعتهم فالتمسوا من الأسقف أن يضع يده على عبدالله لعله يشفيه. كانت يدا عبدالله فعلاً قد زادت فيهما الارتعاشات جداً كأنه يريد أن يساند هؤلاء الطلبة في رجائهم من الأسقف، وحتى باقي جسمه أخذ يهتز، ربما من قوة الموقف. رأيت وجه الأسقف يتخذ عدة أشكال في لحظة، ثم أخيراً هدأ ولان، فمال على عبدالله وقال له:

'أأنت مريض يا عبدالله؟'

'جداً يا سيدنا!'

'وهل تريد أن تخف؟'

'جداً يا سيدنا!'

'إذن فدع ردائي أولاً يا عبدالله.'

تركت يدا عبدالله جلباب الأسقف فوراً، وارتخيتا إلى جانبه على السيراميك. فوقف الأسقف ثابتاً مكانه لحظة، كأنه يراجع موقفه من عبدالله، ثم أخرج صليبه الخشبي القديم من سيالته وهو يقول:

'حاضر يا سي عبدالله.'

ثم وهو يخبط الصليب على رأس عبدالله، وبعدها يضعه عليه بهدوء، قال:

'ولكن لا تفعلها مرة أخرى.'

فصرخ عبدالله:

'حللني يا سيدنا! لا تزعل مني يا سيدنا!'

ثم أخذ جسمه كله يرتعد بعنف وهو يمتص صلاة الأسقف. كانت صلاة قصيرة، ولم تأخذ سوى دقيقتين، ومن المؤكد أن الأسقف لم يردد خلالها سوى مزمور من الحجم المتوسط أو أية طلبة قصيرة، لكننا أحسسناها كأنها امتدت بطول ليلة كاملة. فلم نكن قد شاهدنا شيئاً كهذا من قبل. وأنا نفسي الذي كنت أشك في بركات الأسقف نبض قلبي بقوة وبسرعة وأنا أشاهد عبدالله يتألق تحت يد الأسقف. حقاً كانت تجربة من القلائل التي لا أنساها أبداً مدى عشت، ومن التي أحفظها كمخزون عندي كل وقت شطحت فيه وعاندت. ليس فقط بسبب الموقف المؤثر الذي جعلنا عبدالله نراه، في هذه الليلة، لكن بالأفضل بسبب ما صار بعدها.

ففي صباح اليوم التالي أدهشنا عبدالله جميعاً بأن استيقظ بدون أي رعشة من رعشاته التي كانت لا تتوقف. لقد دار السكن كله جرياً على قدميه وبملابسه الداخلية فقط ليعرّف الخليقة كلها بما حدث معه. ولقد أخذ شكرالله في فحصه، وعجايبي في التأكد من ذكرياته بشأن مرضه الذي انتهي، ثم جاء بعض سكان الشارع ليتأكدوا من صدق الإشاعة، فتم إخفاء الخبر وصاحبه ونفى شكرالله كل شيء. أما الأسقف فكنا قد بحثنا عنه فلم نجده، وقيل لنا أنه غادر مع ضيوفه قبل مطلع الشمس.

شاهدت عبدالله يحضر حقيبته، فسألته:

'إلى أين أنت ذاهب يا عم عبدالله ؟'

فأجاب:

'إلى بني سويف والرب يدبر.'

لم أكتشف كم كان عبدالله مؤثراً في حياتي إلا عندما رحل هذه المرة. لقد أصبحت جاداً جداً ولم أعد أتحمل شيئاً في أي شيء، ووقف مزاحي مع زملائي فترة طويلة، حتى لم أعد أخرج. وبدأت امتحانات الترم. وكانت أياماً صعبة جداً. ورأيت جانيت ابنة صبري في أحد الأيام فسألتها عن عميّ عبدالله أو ميخائيل، فقالت أنها لم تسمع بشيء. ثم سمعت أنا في بدايات يناير، قبل عيد الميلاد بعدة أيام، أن عبدالله قد جاء. وسمعت عن طريق وهبة.

كان ذلك في نفس يوم امتحان المساحة، أجرم مادة لدينا في القسم، والتي كان يدرسها الدكتور حسن أبو المجد ذات نفسه. وبعد أن أجبت بطريقة سيئة، رجعت وحدي، لأني لم أكن أرغب في أي رفقة. فقابلني وهبة على باب السكن. كان محروقاً جداً، وحكى لي عن زيارة سريعة قام بها عبدالله للسكن، ثم قال:

'هذه آخرة العشرة والخدمة يا بشمهندس. هذه هي طبائع الناس في هذا الزمان. والله ما كنا نخدم عبدالله طمعاً في فلوس أو شيء، ولكن كله كان من معزة عبدالله، وأهل عبدالله.'

ثم تنهد وهز لك رأسه.

لم أذهب في نفس اليوم، لكني قررت أن أذهب في الصباح التالي.

كان يوم جمعة وكان بارداً جداً. كانت به تيارات هوائية تخبطك هكذا وأنت تمشي، فكأنها تريد أن تعرقل قدميك، وكان الشارع كله فارغاً. صعدت للدور الثالث، فوجدت النور الأبيض واضحاً من زجاج الشراعة، ذلك النور الذي يدخل من الشباك الصغير في الصالة. لكن كان واضحاً أن باقي الشقة مظلم. خبطت عدة

مرات، فلم يرد عليّ أحد، فلجأت لشقة صبري. فتح لي صبري وكان يقضم من ثمرة طماطم.

'يا مرحب يا مرحب، صباح الفل، تفضل شويا.'

شكرته. ثم سألته عن عبدالله فلم يدعني أكمل وخرج بسرعة وهو ينظر نحو الباب المجاور ويقول:

'لا، كيف؟ تت. أيكون قد مات الحزين أم ماذا؟'

اندهشت وانقبضت جداً من أسلوبه ولكني قررت أن أغلق فمي. بعد دقيقة كان قد غطس وخرج بمفتاح معلق في ميدالية عليها صورة الأهرامات. قال:

'تركوه لي عندما سافروا لكي أعتني بالشقة.'

كانت الأنوار كلها مطفأة بالشقة، ولم يكن نور سوى من خلال الشباك الصغير. وكان باب غرفة عبدالله وميخائيل مفتوحاً، لكن الداخل كان مظلماً تماماً.

'عبدالله... عبدالله.'

سبقني صبري فدخلت خلفه الغرفة المفتوحة. كان عمي عبدالله ممدوداً على سريره وكانت بطانية جديدة تغطيه. قال صبري كمن يختبر خواطره:

'الحزين نائم.'

لكنه لمس ذقنه بأصابعه ودفعها، مرة ومرتين، فلم ينتبه عبدالله. تحركت في الغرفة بحرية فرحت وفتحت باب البلكونة فدخلت الشمس: شمس يناير الضعيفة. رجعت لصبري فوجدت اللون مسحوباً من وجهه. قال لي:

'لقد مات.'

'ماذا تقصد؟'

تحسست بشرة عمي فلمسته دافئاً، فأخبرته. لكنه أعاد متشككاً:

'لقد مات.'

ثم اقترح اسم الدكتورة سعاد، زوجة لوقا. وافقت دون وعي فتركني لأبقى وحدى مع ما اختلفنا على إن كان عمي عبدالله أم جثته.

كان عبدالله يبدو جميلاً جداً وهو نائم. لا أقصد أنه كان دوماً يبدو جميلاً حينما ينام، فلقد شاهدته عدة مرات قبلاً ولم تنزل من حلقي صورته أبداً. لكنه بدا جميلاً هكذا، ونظيفاً جداً بعد أن استحم بلا شك قبل أن يرقد، وحلق ذقنه، ومشط شعره الذي كان قد طال حبة منذ أخر مرة رأيته. وكنت أظن فعلاً أنه نائم. مسكت يده، فكانت باردة لكني اقترحت أن تكون برودة الجو السبب. ثم أخذت أتفحصه كله، فلفتت انتباهي سلسلته الذهبية التي كانت واضحة.

بدون تفكير هكذا حللتها، ثم وضعتها في جيبي ووقفت. كانت رقبة عبدالله دافئة نوعاً فطمأنت نفسي، لكني لم أعلم بعدها من أي ناحية قد طمأنت نفسي.

عاد صبري مع زوجة لوقا. كانت تبدو عليها آثار الاستيقاظ، وجاءت ملفوفة داخل روب سميك لونه خرابي. لم تعتبرني بكلمة. أفسحت لها فكشفت على عبدالله، الأنفاس وكل شيء، ثم أخيراً غطت على وجهه بالبطانية في نعاس فأكدت أنه ميت.

بكى صبري، وجاءت امرأته وقالت:

'ماذا حدث ؟ هل مات!'

فأخذها زوجها للخارج وهو يغطي على عينيه.

'الله يرحمه يا أم مينا!'

فضربت بكفيها وهتفت:

'عيني! دنيا أشغال شاقة وآخرتها إعدام. لا مرة ولا عيال، ولا موتة وسط الأحباب.'

ثم جاءت ابنة صبري (وكان شعرها في فوضى،) فسألت زوجة لوقا بصوت ناعس جداً:

'هل مات يا طنط ؟'

فاحتضنتها امرأة لوقا بذراع واحد وأخذتها خارجاً.

أما وقد انفردت لك بالجثة، فارتعبت لأول مرة وصرخت أنادي صبري. فعاد إليّ يمسح دموعه التي كان منظرها غريباً جداً. قلت له:

'ماذا سنفعل؟'

فقال بصوت مكتوم:

'نرسل لشكرالله.'

لا أعلم لماذا كان الاسم يدور بخاطري أنا أيضاً. ربما لأنه كان قد مر بكثير من الوفيات مؤخراً، ربما لأنه أكثر من كنا نعرفهم حباً لفرض سيطرتهم والتحكم بالأمور وكنا نحتاج ذلك. تأهبت للمغادرة كي أحضر شكرالله فقلت لصبري، مع ذلك حزيناً:

'هل ستمكث أنت معه؟'

فطلب مني أن أنصرف ولا أقلق.

بكيت رغماً عني بعد أن نزلت، وظللت أبكي حتى وصلت لقرب مدخل عمارة شكرالله فتوقفت. فتح لي شكرالله كالمارد في ملابسه الداخلية. كان مخيفاً وهو متعر أكثر مما كان وهو بجلاليبه الهائلة. نقلت له الخبر باختصار فلم يقل الكثير، بل ارتد فوراً إلى باطن شقته ليبحث عن جلباب، ورأيت ابنة صغيرة من بناته تنظر إليّ وهي تخفي ضحكة، وشعرت بالحرج وأنا أقف خارج الباب فنظرت لأسفل.

مررنا على وهبة فأخذناه معنا، وكان من الملفت للانتباه أن شكرالله لم يخبره بطبيعة زيارتنا لآخر الشارع فلم يسأل وهبة. وما أن وصلنا لك حتى اقتحم شكرالله المكان كأنه فاتح همام. انحنى يفحص الميت بنفسه: رفع الجفنين العلويين، وتحقق من النبض، ومال بأذنه ناحية المنخرين، ودق على شفته (لم أعلم ما السبب،) فلما انتهى تنهد في ارتياح وغطى الميت كما كان.

'رحمنا الله جميعاً. هاه.'

خرج لك وهبة ليبكي بشكل مضحك في الصالة بينما تابع شكرالله:

'هذه فائدة الزواج يا عمي، هذه هي فائدة الزواج. لو كانت لديه مرة تعيش معه، وتأخذ بالها منه، أكان مات وحيداً المسكين؟ والله العظيم يا أستاذ صبري الواحد بعد ليلة الدخلة لا تعود لديه شهوة للمرأة ولا لجنسها. ولكن الواحد عامل حساب موقف كهذا... وها البارحة كان، وأنت عارف. ولا كان لي مزاج ولا يحزنون. وكثيراً ما أتشاجر بسبب أني أحب أن أنام وحدي في الحجرة الداخلية، وأتركها هي في البحرية. غير أنها يا عمي ليلة أمس نشفت دماغها وإلا ولازم. وها أنا هذا الصباح أكاد لا أرى أمامي. هيه يا ولد يا جون؟ اسأله كيف كان حالي لما فتحت له. ولكن كله إلا الواجب. وعبدالله رحمه الله كان يعز علي... آه وعليك نور، وعلينا كلنا. فقمت لك غيرت ملابسي على الفور. . . .'

غير أنه نظر قليلاً إلى الجثة فسأل:

'ولكن أين ذهب الذهب الخاص به يا عمي؟'

ثم ملتفتاً إليّ بالخصوص.

'هاه؟'

بعد ذلك سألني بطريقة مباشرة عن الذهب، فهززت كتفيّ وقلت:

'أي ذهب يا أستاذ شكرالله؟ وما علمي أنا؟ ثم أنه ها هو أمامك.'

فشد البطانية عن رقبة عبدالله، ونظر إليها بإمعان، ثم غطاه ثانية وقال:

'لنغطه نحن يا عمي لئلا يقول أقاربه أننا سرقنا من ذهبه أو شيء. ها؟ تمام يا جون؟'

'ما تراه يا أستاذ شكرالله.'

تجادل شكرالله بعد ذلك مع عمك صبري حول الطريقة المثلى التي يجدر بها إبلاغ عادل: هل عن طريق الفاكس، هل عن طريق الانترنت، هل يبعثان له عن طريق البريد، هل يذهب أحدهما إلى بني سويف ليخبره، هل يتصل شكرالله بالأستاذ عماد سيدهم نسيب عادل في بنها ليطلب منه إبلاغ عادل؟ حتى تذكر صبري أخيراً أن نمرة عادل معه بالداخل.

'إذن لماذا تتعبنا يا حزين؟ عندك البشمهندس جون يذهب ويتصل به.'

اضطررت أن أسكت احتراماً للموقف. ذهب صبري وجاء، وكان قد كتب نمرة عادل على ظهر ورقة نتيجة، فأخرج شكرالله من جيبه محفظة خرافية الحجم، فتحها فأخرج لي منها كارت ميناتل جديداً. قال لي وهو يسلمني الكارت:

'هذا أمانة في رقبتك. إن أخذت منه أكثر من ستين ثانية، ها، أنت تعلم.'

خرجت لأتصل بعادل. كانت أم مينا قد بدأت ترتب الشقة مع ابنتها وامرأة أخرى وأنا أغادر، وأحسست أني ثقيل جداً بمجرد أن خرجت من الشقة. كنت حزيناً جداً، وكانت ضربات قلبي سريعة وثقيلة. وتعجبت وأنا سائر من أمام الأتيليه، ثم شق الحيط، ثم دكانة أيمن، كيف أن العالم كله كان في جهة، ومأتم عبدالله في جهة أخرى، على الرغم من أن هذا العالم نفسه كان شديد الاهتمام بعبدالله قبل أن يموت. هل يعقل أنهم لم يسمعوا بعد؟ لقد رغبت أن أخبر الجميع بوفاة عبدالله ساعتها، لعلهم يشاركونني حزني.

اتصلت بمنزل عادل من كابينة الميناتل على ناصية الدمرداش، فردت عليّ زوجته وقالت أنه غير موجود. كان صوتها لطيفاً وقد تغيرت نبرتها عندما سمعت الخبر فوعدتني أن تخبر زوجها حالاً. عندما رجعت، كان شكرالله جالساً على كرسي أول الطرقة يشرب له كوباً من الشاي، وكان صبري واقفاً أمامه، وكانا يتحادثان وكان شكرالله رائقاً جداً. أما وهبة، فقد استغل مواهبه لينشغل مع السيدات (أم مينا وسيدات أخريات لا أعلم من أين أتين، كلهن في ملابس سوداء) في غسيل الأرضية ومسح الشقة استعداداً للمأتم المؤقت، وقد شمر كلسونه، وكمي بلوفره الداخلي، بعد أن خلع جلبابه، وأخذ يقودهن مستعملاً نبرات المشرف من وقت لآخر، لحد أن قال لسيدة سمراء قصيرة ممتلئة: 'يا عروسة ابدأي من عند الباب لأن البلاط مائل للحمام، هاه؟'

قلت لشكرالله أني لم أجد عادل في البيت وأني أخبرت امرأته. فغضب شكرالله وقال لي وهو يوقف كوب الشاي في الهواء:

'يا حزين لماذا لم تخبره يا حزين؟ ستنام على نفسها، الولية، ولن تخبره بأي شيء!'

ثم فكر شويا، وشفط له شفطتين من الشاي، بعدها قال كأنه يكلم نفسه:

'كما يجب إعلام مكتب الصحة أيضاً... شششفف.'

ثم قال وهو يهز رأسه كأن لا حل آخر:

'أذهب أنا يا عمي!'

ثم قال أن هذا واجبه، مستنتجاً بعد ذلك في حكمة جليلة:

'الواجب في حياة الإنسان، هو حياة الإنسان.'

تخصصت شقة صبري للحريم، وأقاربي للرجال. والحق لقد أتى أناس كثيرون جداً، لم أعرف من أين أتوا. فادي بهجت أيضاً جاء. كان الشارع كله قد عرف في خلال دقائق من خلال وهبة.

أخذ فادي يشيل ويحط، مع عمك صبري الذي ارتدى بدلة كاملة لونها أسود، كأنه أوفى إنسان. بينما تبرأت لك أنا من عمل مثل تلك الحركات لكي أظهر وأقول للناس ها أنا. وكانت جانيت تأتي من وقت للثاني بالشاي والمياه، وكانت تكلم فادي كثيراً بطريقة لم ترحني. ثم جاءت الجارة الجميلة التي تسكن بالأسفل فولولت على ميخائيل، ثم قيل لها أنه عبدالله فصرخت ودخلت الشقة المجاورة.

كانت زحمة في الشقة، كأننا في أتوبيس، وجاءت مئات الكراسي، وجلس مئات الرجال. وتكلم كل واحد مع مرافقه فعمت الضجة ولم يعد بالإمكان للواحد أن يسمع نفسه. وكانت هناك شخصيات بارزة أيضاً، مثل الأستاذ ملقي والأستاذ لوقا، ومثل سيدة مقطوعة القدم عملت دوشة وهي تدخل الشقة المجاورة.

لم يبد أن لوقا وملقي كانا يحبان بعضهما، لذلك وقف كلاهما مع أناس شكل، ثم جاء ملقي يسألني:

'وما العمل الآن؟'

حقاً، ما العمل الآن؟

كان سؤالاً عويصاً لأني لم أفكر إطلاقاً ما الذي كنا ننتظره. هل كان عادل سيأتي حقاً؟ هل كنا سندفن عبدالله من أنفسنا في أي مكان؟ هل كنا ننتظر الفرج وخلاص؟ لم أعلم. وكذلك فادي، الذي لم يكن يعلم أي شيء من البداية، لم يعلم. وأيضاً صبري. فانخنق منا الأستاذ ملقي وتركنا وهو يدوس على ضروسه في غضب.

لكن يبدو أن استفزازه هذا قد نقل المسئولين (صبري وامرأته، وأنا وفادي أساساً) إلى جو من القلق. بعد ساعة قالت أم مينا أن علينا أن نطلب معونة أي كنيسة لكي يُدفن عبدالله في أي مقبرة تابعة لها بعد الصلاة عليه في المدينة وخلاص. لكن زوجها طلب منها أن تتمهل، لئلا يأتي عادل في النهاية وتصير مشكلة. لكن لوقا حشر أنفه في وسطنا وقال:

'مشكلة؟ أي مشكلة؟ أفيترك أخاه هنا يأكله الدود وتقول لي مشكلة!'

تعمقنا فيما بعد الظهر ولم يصل الأخ المنتظر بعد. شربنا عشرات الأكواب من الشاي، وتكلمنا كلاماً كثيراً جداً، وكل شيء، وكنا على وشك اتخاذ القرار بأن يتصل الأستاذ لوقا بأي أب كاهن من معارفه لكي يجهز لنا الأمور في المدينة، لكن عادل جاء. جاء مع شريف، ودخل شريف المكان مكشراً على غير عادته، وأحنى رأسه، وعندما دخل خلفه عادل (رجل وسيم شعره أبيض على الجانبين ويرتدي بدلة بيج، به شبه من ميخائيل برأسه الكبير وفكه العريض،) وصرخ: *'عبدالله!'* وشوح بذراعيه، مسكه شريف وكشّر في وجوه باقي الرجال ليساندوه. أخذوا عادل إلى غرفة عبدالله وسط البكاء الذي عم الجميع (حتى فادي) وهو يزعق في هذا، ويدفع ذاك، وكشفوا له الغطاء عن رأس عبدالله فرفع عادل ذراعيه لأعلى وأغلق عينيه وارتخى

جسمه كأنه سينهار. فحمله شريف والرجال إلى غرفة أمه ليرتاح وسط الولولة التي صدرت من النسوة من خارج الباب.

بكى لك عادل على السرير، وتردد صوت بكائه في صدره، وقال ميزات كثيرة كانت لأخيه (لا أتذكر أياً منها للأسف.) ثم قال:

'ماذا أقول الآن لأمي يا عبدالله؟ لم تنعم بالهناء يوماً في حياتك يا أخي!' فقطّع قلوبنا.

ثم أتى لك عمك شكرالله، بطل اليوم، بصحبة رجل قصير أبيض الشعر بنظارة طبية، بان عليه أنه مفتش الصحة، فخرم الجموع يوسع لنفسه ولمرافقه مكاناً. لم يمد مفتش الصحة يده. شاف وجه عبدالله، ثم طلب من شريف أن يقلبه، فقلبه. ثم طلب أن يرفعوا الملابس عن ظهره، ففعل شريف. فهز رأسه وكتب شيئاً ما على ورقة وغادر وشكرالله يشيعه.

اتجه شكرالله بعدها إلى الأخ المنكوب لينصحه ويواسيه، وليحكي له، بطول شديد جداً، عما حدث منذ تم اكتشاف الجثة إلى اللحظة التي جلس فيها إلى جواره على سرير أمه يحكي له عما حدث منذ اكتشاف الجثة إلى اللحظة التي جلس فيها إلى جواره على سرير أمه، مغيراً تقريباً في كل شيء بحسب مزاجه: فهو الذي اكتشف هو الجثة، وأحضر صبري من بيته، ثم رتب الشقتين للعزاء هو وصبري، وانقسم ظهره وهو يرص الكراسي، وأرسل 'عيلاً' من السكن ليتصل ببيت عادل، على حسابه والله، كما أن ذلك العيل اتضح أنه حرامي فلم يرجع له الكارت الذي أخذه حتى وقتها (اكتشفت لدهشتي أن هذا صحيح!). . . . إلخ إلخ إلخ. ثم أخذ يعرض على عادل الورقة الوحيدة التي كتبها الطبيب والتي اتضح أنها تصريح الدفن، فقرأ له كل كلمة من كلماتها، مراجعاً بين كل لحظة والأخرى:

'هاه؟... عاه؟... أأنت معي يا عمي؟'

ولم يكن عادل معه على الإطلاق طبعاً، وكان شكرالله يعلم هذا ولكنه لم يتوقف، بل زاد في ثرثرته ودوشته حتى أكل دماغ الجميع من الخارج. ثم سئل

عادل عن الأشياء التي حيرت كثيرون قبل أن يأتي: عن الكفن والصندوق والصلاة والجبانة، إلخ، فقال أن كل شيء مرتب في البلد، وأن ميخائيل بالفعل في طريقه إلى هناك. لكن تبقى أزمة سيارة تنقله هو وجسد عبدالله إلى البلد، فتكفل شكرالله بهذه النقطة أيضاً، موضحاً أن 'عباس' لديه سيارة ميكروباص من التي بها مساحة في الخلف لنقل صناديق الموتى، فلم تعد هناك مشكلة.

لم تعد هناك مشكلة في نظر الجميع، لكننا نسينا حضور الأستاذ لوقا بيننا. كان قد فعل المستحيل على ما يبدو لكي يحافظ على 'هدوئه' حتى هذه الساعة المتأخرة، فتقدم ناحيتي أنا وفادي، مع بعض الشباب الذين جاءوا ليعزوا من السكن مثل Current والدقرم وحمص، فسأل عدة أسئلة عن أشياء غريبة لا أعرف عنها شيئاً، فقلت له:

'اسأل عادل.'

ظناً مني أنه سيمكث محله ولن يسأل الأخ المسكين الذي كان في حالة أخرى بالداخل. لكن لوقا ذهب فسأل عادل. كان منظره فريداً بجسمه السمين الأحمر، طبيعته هكذا زائد نرفزته وقرفه، وهو يحشر نفسه بين الجموع الكثيرة التي زحمت الشقة. وما أن وقف لك على عتبة الغرفة، حتى ابتدأ يسأل عادل المسكين هذه الأسئلة المعقدة الغريبة التي تحتاج إلى دماغ واع ليجيب عليها. كان هناك شخص واحد بالفعل كان بإمكانه أن يجيب على هذه الأسئلة، وهذا الشخص كان شكرالله. لكن شكرالله لم يجب. بالطبع لم يستطع عادل أن يجيب على أي شيء، وخاصة أمر تغسيل عبدالله، حيث قال أنه لا يعلم في الواقع ولكن مؤكد أن أهله في البلد سيتولون الموضوع. فصرخ لوقا وهو يشوح بيديه كفرخة بيضة بياضة معلوفة تحاول الطيران:

'لا تعلم! وماذا تعلم إذن؟ ألا ترى أنك قد تأخرت بما يكفي في ستر أخيك!'

هز عادل منكبيه في حيرة وضعف ثقة. كان مشتتاً جداً. ثم نظر إلى شكرالله فلم ينجده شكرالله. قال ملقي مؤنباً لوقا:

'كفاك يا لوقا، دع الرجل في حاله يا أخي. هو ليس عنده دماغ لهذه الأمور الآن.'

'وهل ننتظر حتى يروق دماغ سيادته فيفكر في أخيه الذي من لحمه ودمه؟ ما هذا الكلام البائخ؟ يجب أن نقوم ونغسّل عبدالله الآن. هيا معي يا شكرالله.'

فهتف له شكرالله عالياً وهو يستلقي على السرير بجانب عادل:

'أنا عندي تعب في المفاصل والدنيا برد ولن أقوم لأغسل عبدالله ولا أغسل شكرالله. شف لك أحداً غيري يا سي لوقا.'

سأل لوقا عدداً من الرجال الموجودين، فقام بعضهم وتمنع بعضهم، ثم استدار مرة واحدة وقال لنا، فلم أرد، أما كل الباقين فوافقوا في حرج.

كان حمام الشقة صغيراً جداً في الحقيقة. كان عبارة عن حُق متر في مترين، وكان مقرفاً، وكانت لي معه قبل ذلك حكاية كرّهتني فيه: ذلك أن ميخائيل، سامحه الله، كان قد اتهمني مرة بأني تبرزت داخله في فوطة الوجه الخاصة به. أقسم بالله أن هذا ما حدث. لذلك، فقد أخذت القرار ألا أدخل حمامهم أبداً. ولم يكن حدث مثل موت عبدالله ليزحزحني عن قراري. وقد قلت هذا لزملائي أصحاب الشهامة الذين تبرعوا وأنا أتراجع للخلف وأعقد ساعديّ لأتفرج.

بصراحة، لقد أشفقت عليهم. أشفقت على الجميع، حتى أولئك الرجال الغرباء الذين وقعوا تحت يد لوقا (ثم ملقي، الذي سرعان ما اتجه إليه ليعاونه في الأمر والنهي.) شال رجل عجوز، شعره واقف على الناحيتين، عبدالله من أسفل كتفيه، لكنه كاد يسقط منه فعاونه شاب في الثلاثينات طويل وله شارب محترم. أما من ناحية القدمين، فوقف رجلان ممتلئان أحدهما حليق جداً وأنيق والآخر يشبه

ملقي، ربما كان أخاه. بينما استلم Current وحمص منطقة الوسط، من حيث (إحم) مؤخرة عبدالله.

بعد كفاح، نجح الرجال، تحت قيادة الجنرال لوقا واللواء أركان حرب ملقي أفندي، في توصيل عبدالله إلى الحمام. كانت يدا عبدالله تتراقصان إلى جانبه، وكانت شحوم خديه تترجرج مع كل حركة، أما Current والدقرم، فقد عانيا أشد المعاناة في رفع مؤخرة الميت، فانضم إليهما لاعبا الاحتياطي فادي والدقرم. ولم أرهم وهم يخلعون عنه ملابسه، لكني سمعت لوقا وهو يوجه وينظر بقرف. ولم يعجبه الصابون عندما ابتدأوا التغسيل:

'وما هذا الصابون السيء، أيكون صابون غسيل؟ أهذا يليق؟ أينغسل الميت بصابون غسيل؟ جنازة محترمة كهذه بها قرابة مائة رجل لم يشتر أحدهم صابونة لنغسّل بها الميت!'

كنت أريد أن أعطي له ثمن الصابونة لكي ينزل بسيادته ويشتري لنا صابونة، لكني خفت أن يلزقها بي ويجعلني أنزل فأحضرها فأبقيت فلوسي وفكرتي في مكانيهما. وسمعت لك صوت المياه، وكانت الدنيا برداً أصلاً، فارتعشت لك في مكاني، فترى كيف كان حال 'المتطوعين' بالداخل! وترك لك الرجل العجوز عمله، وخرج من الحمام مبتلاً تماماً، فأتبعه لوقا بلعناته.

'ستموت والمسيح ولن يغسّلك أحد!'

ثم خرج الرجلان اللذان شالا عبدالله من قدميه، والرجل الذي يشبه ملقي متسخ برغوة كثيفة يحاول أن يجففها، فدخل اثنان غيرهما.

بعد أن غسّلوه دخل فادي فاختار لعبدالله بنطلوناً وقميصاً من الدولاب فقال عنهما ملقي بعد أن عاين الخامة:

'على بركة الله.'

تم إدخال عبدالله في ثوبه الجديد فبدا نظيفاً وأنيقاً. بالطبع كان هناك كفن في البلد لكنها كانت ملابس السفر كما وضّح لوقا. وهنا خرج عادل من غرفته

يريد أن يحتضن أخاه، لكن مائة نفر منعوه فأدخلوه ثانية بالقوة. وبعد دقائق سمعنا سيارة تزمر من أسفل، فهتف شكرالله:

'عباس!'

اندفع عشرات الناس نحو باب الشقة الصغير ليسبقوا إلى أسفل فعملوا ما يشبه الجلطة. لكن شكرالله تقدم ففتتها في ثوان. كان موهوباً بسم الصليب عليه. بعد هذا ابتدأ بعض الرجال ينزلون فخفت أن يورطني أحد القادة أو الجنرالات في حمل عبدالله، فنزلت بدوري. كانت الدنيا زحاماً في النزول، بسبب كثرة الناس وبسبب الماء الذي يغرق المدخل وعملية التنطيط اللازمة لتجاوزه، فما أن خرجت حتى وجدت لك وجهي ينخبط في جانب سيارة ميكروباص. وكان شكرالله يقف خطوتين مني يحاسب السائق، والذي كان زنجياً بلحية خفيفة له عينان بارزتان.

سمعت أصوات بكاء كثيرة بالأعلى، لكن لم يكن هناك عويل أو ولولة كثيرة كما كنت أتخيل. في النهاية عبدالله غريب وستودعه مدينته غريباً كما جاء. لحظت أيضاً أن أغلب الطلبة المعزين كانوا قد نزلوا. ووقفت مع Current الذي كان صامتاً تماماً لا يشكو من بلل خفيف بملابسه، وأحسست أنه سيبكي. وبالفعل بكى قليلاً فابتعدت عنه وكشرت في حزن. ثم تذكرت عبدالله ومواقفه المضحكة فبكيت أيضاً مثلما بكى كثيرون حولي.

تم حمل عبدالله، ملفوفاً داخل كوفرتة، إلى خلفية السيارة، حيث كان هناك مكان معد بالفعل لاحتواء جسد الميت، فدب على أرضية السيارة لثقل وزنه مما جعلني أقطع بكائي وأضحك ضحكة خاطفة جعلت الكل ينظر إليّ. ثم نزل عادل وهو يشفط من سيجارة فركب جنب السائق في صمت. اقترب لك منه شكرالله فهمس له ببعض الكلمات ثم تراجع للوراء وهو يشير للجميع بإفساح مكان لتحرك الميكروباص.

بعد أن تم كل شيء اقترب مني شكرالله فأخذ كارت الميناتل وأخذ يرغي كثيراً ولكني لم أكن منتبهاً له. كنت أفكر في عبدالله: كيف أنه كان يكره ميخائيل،

وكيف أنه حاول أن يشتري حبي له بقداسته المتأخرة. وتذكرت ميزاته أيضاً. وتذكرت أني أخذت سلسلته وتحسستها في جيبي وشكرالله يحدثني. كانت أفكار كثيرة في دماغي.

الفصل الثالث
ميخائيل الملحد.

أدت وفاة عبدالله إلى مضاعفات خطيرة لم يكن أحد يتوقعها. فقد أخذ الناس يموتون بعده، واحداً تلو الآخر، كأنهم كانوا في طابور ينتظر اعتماد أوراقه. مات كل هؤلاء في خلال أيام:

—توتي، والد فرج ومجدي، وقد نصبوا له نصبة سدت الشارع ومنعت عبور السيدات، وتم إغلاق الأتيليه نصف يوم حداداً عليه (ثم انفتح بعد ذلك بحجة أن السلك المتصل بالمايك، الذي كان يستخدمه الأب الكاهن في كل مساء ليعظ منه، كان قصيراً ولم يكن يصل لأبعد من المحل.)

—أخت جدتي من ناحية أبي.

—قريبة صغيرة السن لنا في القاهرة لم أكن أسمع عنها وهي حية.

—مينا سيف الذي سكن هو وبضابا موريس محل حنا رأفت ورامي نشأت في غرفتهما الجميلة بالدور الرابع (أكبر مأساة قابلتنا في السكن بعد موضوع حنا رأفت الذي مات بالسرطان.)

—كلبة الولد ماندو حفيد جدو.

—سيدة كبيرة في السن كان مولانا يراها في كنيسة مار مينا.

الموت كان غريباً عليّ زمانها، لأني كنت صغيراً وأهبل، ولأني كنت أتهرب من سماع جميع الأخبار السيئة، بما فيها موت المعارف والأقارب. كنت أحاول أن أعيش أنعش حياة.

لكن موت عبدالله (حتى في موته لم يدعني في حالي) نقلني أوتوماتيكياً إلى جميع الأخبار السيئة في العالم. وتلاحقت الميتات سريعاً، كما وصفت، بشكل لم أكن أصدقه.

أيضاً موضوع السرقة البسيطة التي قمت بها لعمي ظهر كأنه لعنني. لم أقل أن السلسلة نفسها هي التي لعنتني، لأن السلسلة كانت ذهبية وجميلة، لكن فعل السرقة نفسه هو الذي تسبب في لعنتي. هذا لأن السرقة خطيئة، ولأن الرب غالباً كان زعلاناً مني، ولأن روح عبدالله كانت تحوم حولي تحاول الانتقام مني.

وتم الانتقام عن طريق الامتحانات أولاً. فلم أحل في الامتحانات المتبقية حتى ١٤ يناير جيداً، ولم أعيّد أيضاً بل بقيت في المدينة رغماً عن أهلي لأن رئيس القسم كان قد حدد امتحاناً في يوم ٦ يناير، أي ليلة العيد، وذلك حتى يتاح له أن يعيّد على الإخوة المسيحيين في ليلة عيدهم، وقد فعل الرجل لا أكذب.

ثم قام شكرالله بالجزء الأعظم من جعلي أحس أني ملعون، وأن أهلي زناة، وأن الأرض لم تعد مكاناً مناسباً لأمثالي. صار يترصدني في الروحة والجيئة. وأخذ يلاعبني، ثم يلدغني، يجاريني، فيخضني، يشد، ويرخي، حتى كاد يأخذ عقلي مني.

ومرة يقول لك:

'الله يسهل لك يا عم جون يا وارث!'

ومرة يقول:

'ألم تسمع؟ ألم يسرقوا عبدالله قبل وفاته!'

وكانت مصادفة مذهلة يوماً فناداني وكان في حجرة الإدارة معه رجل في الخمسينات، أنيق، وقال له أمامي:

'وألست صائغاً يا عمي؟ ها أنا قد جئتك بزبون يورد لك طلبية ''سُقع.'' ولكن خذ بالك، البضاعة مسروقة. والنصف بيني وبينك يا عمي، هاه هاه هاه.'

كما قال لي مرة وأنا ماش إلى جواره:

'هيا يا عريس، نريد أن نزوجك. أنت رجل "كبير" الآن ولا أحد يعرف كيف يكلمك.'

كل هذا فكنت أنلخم، وأعرق عرقاً بارداً جداً، فكان المشرف يبتسم ويتركني آخر مزاج.

غير أني أدركت بعدها أنها حرب نفسية. فصرت أقابل تعليقات المشرف بـ'تحت أمرك يا باشا،' و'من عيني،' و'يا باشا نحن جوارك لا شيء،' وإلى آخره. وتمرنت إلى أن أصبحت ألقاه باسماً أكثر منه، وأرد التلميح بالتلميح، وإن اتسعت بسمة المشرف أنا أضحك، وإن ربت على كتفي أنا أضرب، وإن هتف أزعق، وإن جد في التلميح تحامقت في الفهم، بل كاد فعلاً مرة في لحظة تهور أن يصارحني بالأمر علانية في وجود شريف، لكني قطعت عليه الطريق وسألته بجدية:

'إنما قل لي، ألم تر سلسلة عبدالله في أي مكان قبل وفاته؟ يقولون أنها ضاعت يا أخي.'

'بل مسروقة وحياتك، هاه هاه هاه. ووغلاوتك عندي، لأفضح سارقها وأجعله فرجة قدام الناس.'

وهناك أمر آخر أيضاً أعتقد أنه ضايقني. لقد أصبحت أشك في كل شيء أنه من طرف روح عبدالله التي تحاول أن تنتقم مني (أو عن طريق خالقي الذي أراد أن يعاقبني،) لكن هذا الموضوع فعلاً ضايقني، سواءً كان عن طريق القديس عبدالله، أو إلهه، أو غيرهما. وربما هو فعلاً عبدالله، بطريقة أو بأخرى. فقد تسببت وفاة عبدالله في ابتعادي جداً عن جانيت. بعد أن صرنا نتكلم معاً ونقف ولو بقلّة، لا أدري لماذا يا أخي صرت لا أحب رفقتها، ولا أريد أن أتكلم معها، ولا حتى أن أراها. فادي شال الشيلة كلها. أصبح هو من يقف معها، وتأنق لك جداً من أجلها، لدرجة أنه ذات ليلة وهو يحلق ذقنه بشدة لأجل أن يبدو وسيماً في الصباح التالي أمامها، التهب لك وجهه، فنزلت معه لبسام والكبير وأنطون لأجل أن يعالجوه، فحقنوه

بثلاث حقن، كل واحد منهم حقنة (كانوا يتعلمون ضرب الحقن على فخذه الطرية، في الواقع.)

على أي حال أعود لأمر شكرالله. لقد اضطهدني المشرف نفسياً جداً في كل لحظة أتيحت له من اللحظات القليلة المتبقية في الترم، لدرجة أني صرت أشك في إمكانية بقائي حتى نهاية الترم. لكن المشرف كان يهدد ويهدد ويهدد ولا يفعل شيئاً، وكلما اقتربنا من نهاية الترم (يوم ١٤ يناير بالنسبة لنا،) كانت ابتسامته تزداد اتساعاً بشكل مخيف.

لكن الترم انقضى ولم يحدث شيء.

وعدّت أيام الإجازة ولم أسمع أي شيء.

ثم دخلنا النصف الثاني فوجدته ناسياً الموضوع.

لم يكن عبدالله قد تركني في إجازة منتصف العام، فقد كنت أفكر فيه يومياً، مع خوفي من شكرالله. بل، والله العظيم يا شيخ، لقد ظهر لي في المنام كذا مرة في أحلام غريبة: مرة يقود طائرة فوق الأهرامات ويتكلم بلغة ميخائيل، ومرة ينشر لك منضدة بمنشار عجيب ويتكلم فيقول: 'أرجع الأمانة يا ولد يا جون،' ومرة يقف بلباسه الداخلي في صالة شقتهم المظلمة، ساقاه متقاطعتان مثل علامة خطأ، وكان يحاول أن يرقص ولكنه يفشل، وغيره. كانت السلسلة وقتها في 'رول' اللوحات الكرتوني الذي كنت قد تركته في السكن (في البلكونة) إلى حين أن أرجع إليه في الترم الثاني. لم يكن وهبة ينظف البلكونات في أثناء إجازات منتصف العام وكان يتركها وسخة، وبذلك، فقد اطمأننت إلى أن جريمتي ستظل مستورة طوال تلك الفترة.

وبعد أن عدنا في الترم الثاني، قمت بنقل الجريمة (الجسم) إلى كعب كتاب المساحة الذي كنا نستخدمه كمرجع، بنفس الطريقة التي فعلها عادل أدهم في الفيلم إياه، ووضعت قطناً من الناحيتين. ثم خفت مرة أخرى وبدأت ألبس السلسلة لعل الملابس الثقيلة وقتها تخفيها وتحفظها. لكن فادي رآني وسألني عنها،

فقلت له أنها من أمي، ثم خلعتها ودسستها في مرجع المساحة من جديد. ولكن هذه المرة لم تكن آمنة مثل المرة السابقة، ربما بسبب أني أخرجتها ثم وضعتها في مكان قديم، بالإضافة إلى أن عبدالله بدأ يظهر لي وهو يقرأ من كتاب المساحة لابساً نظارة غريبة تملأ كل وجهه. كان وجهه خبيثاً ومنتقماً.

كانت الأمور مملة في بداية الترم. لم تكن هناك امتحانات تشد الواحد وتجعله يذاكر، ولم أكن أكلم جانيت، ولم أكن أخرج كثيراً لأن عبدالله كان يحاول أن يعرقل قدمي ويقتلني أمام السيارات. كانت أياماً وسخة. ثم عاد ميخائيل فغير كل شيء.

لابد أن الأيام نفسها كانت قد أحست بقرب قدومه، فتغيرت النبرة المملة التي كانت تعبئها، وبدأ السكن يهتم لك بآخر تطورات موقف شكرالله. لم يكن مخفياً بالطبع أن الأسقف عندما جاء كان هدفه تجهيز استمارة ٦ لشكرالله. لكن شكرالله لم يكن بالإنسان السهل أبداً. فرغم علمه بأنه خارج خارج لا محالة، إلا أنه استطاع، بحذاقته ودهائه، أن يمكث في إدارة السكن عدة أشهر أخرى بحجج متنوعة. وفي الحقيقة، كان كل أسبوع يمر عليه يرينا حيلة جديدة نحترم عقليته عليها، ولقد أمتعنا في تلك الفترة بطريقة جعلت البعض يحزن على أنه مغادر.

كان الأساس الذي وقف عليه الأسقف، وأتباعه من الأوفياء مثل الأستاذ عماد ومن المنافقين (الذين كانوا يمشون مع شكرالله طوال النهار ثم يقولون في ظهره كلاماً وسخاً بالليل) مثل عجايبي، هو أن شكرالله كان يختلس من مال السكن. حسناً؟ لكن أين الأدلة؟ الأدلة كلها كانت في يد شكرالله. فكان يجب لإثبات ذلك أن تتم مراجعة كل سجلات السكن من يوم أن وُضعت فيه أول طوبة، إلى سنتنا الزفت هذه التي كنا فيها، وكان شكرالله من ناحية أخرى كثير التزوير والتلاعب بالأرقام فكان عملياً من المستحيل أن تُثبت عليه أقل تهمة. لكن الأستاذ عماد كان ذكياً، من الجهة الأخرى، وكان خريج تجارة، وكان يريد أن يتخلص من منصبه في السكن لكي يحجز لنفسه مكاناً في دير البراموس ويصبح راهباً، حيث أن

الأنبا أغاثون، قريبه بالمناسبة، كان قد حظر عليه أن يترك السكن بدون أن يجد الدليل على لصوصية شكرالله، ثم أن يحضر للسكن آخر محله. كانت مهمة ثقيلة إذن التي وُضعت على عاتق مشرفنا الجديد النظيف، وكان شكرالله يعذب أمه بالتلاعب والتسويف والتأخير في إعطاء البيانات، أو ذكر أشياء مخبولة ينبغي للمشرف الصغير أن يراجع كل معلوماته في الحساب لكي يحكم عليها، وأي إنسان غيره كان ليهجّ من السكن من أول صدام. وهكذا رحنا نشاهد حلقات الصراع النفسي، أولاً وأخيراً، ثم التجاري بين شكرالله والأستاذ عماد. كان شكرالله قد قيّد في بياناته أنه كان يصلح السكن في السباكة والكهرباء وخلافه بأسعار ضاربة في السقف، وشهّد الصنايعية على صدق كلامه، فهزوا رءوسهم وقالوا نعم. لكن الأستاذ عماد راجع صنايعية آخرين، عن أسعار نفس الفترة، فاكتشف زيادة تقريباً بالضعف في بعض الأحيان. وهكذا أخذ يخصم، من نفسه، من الأرقام التي وضعها شكرالله، وقال لشكرالله أنه إما انضحك عليه، أو اتفق مع الصنايعية. لكن شكرالله لم يهتز، بل أحضر مشرفاً آخر اسمه إكرامي كان حوتاً كبيراً من حيتان الإشراف على بيوت الكنائس في المدينة، فشهّده على كلامه، فضحك الأستاذ إكرامي وقال للأستاذ عماد أن جميع الأرقام التي أخذها عن الصنايعية الآخرين غير مقبولة: لأن الصنايعي عندما يقال له أنه سيصلح في 'بيت كنيسة،' فإنه إن كان مسيحياً، يضرب في العالي لكي تجامله كنيسته، وإن كان مسلماً، يطلب ضعف الضعف، ثم يجب أن لا ينسى دور التنافس والخداع بين الصنايعية وبعضهم، ولربما قال له الصنايعية الآخرون هذا لكي فقط يضربوا في ظهر إخوتهم في الصنعة. كل هذه الأمور كانت تخص فترات قديمة في السكن من أيام قم واقعد، أما الأمر الحاسم حقاً، فكان السجلات الخاصة بترميم السكن، ذلك الترميم الذي تم على نطاق واسع أخذ نصف السكن (ب) قبل عامين. لقد أكل شكرالله في هذا الترميم أكلاً بعمره، ولهذا فقد أخفى سجلاته عن الأستاذ عماد نهائياً وقال أنها ضاعت. وهنا كانت ملاحم الأستاذ عماد لكي يدور وراءه يدقق في الأثمان التي أخذها الصنايعية، ثم يختبر الأصناف التي رُكبت، وهكذا.

وكانت فترة مليئة بالترابطات السرية والفتن واختبارات الولاء، التي هزت السكن هزاً من البدورم للدور الخامس.

في هذه الفترة أتى ميخائيل. لقد مر على السكن أولاً قبل أن يذهب لشقة أبيه، فأثار حزناً رهيباً علمت أثره من وهبة الذي قال وهو يلطم:

'رحت فين يا حزين، ورجعت منين يا قزين.'

فارتعب لك، وذهبت بسرعة لرؤية عمي ميخائيل. وهنا كانت الصدمة. فلم يكن من فتح لي هو ميخائيل الذي عرفته. انكمش جسمه، وامتصت كرشه، وضاعت طاقته منه، واصفر لونه، كما أن شعره قد طال عن الحد المعقول وسقط بعضه، ولم يكن قد حلق ذقنه منذ أسبوعين على الأقل، واتسخت نظارته، وتراكم الغمص حول عينيه كأنه بكى عمراً بحاله، وكنا وقتها في بداية أبريل، على بداية الدفء، غير أن ميخائيل قد ارتدى سويتر ضخماً منفوخاً، لم ينجح في مداراة ضعفه وانهياره.

كان يتطوح لك بطريقة أوضح بكثير من المرات السابقة، حيث كان يهتز في مكانه وكانت نظراته غير ثابتة، لكنه تلقاني بشوق شديد، واحتضنني وهو يبكي.

'كيف حالك يا جون!'

فقلت له وأنا أتلقى ثقله كله:

'بخير يا عم ميخائيل. كيف حالك أنت؟'

فأشار لي بالدخول وهو يقول:

'كما ترى يا جون يا بابا. يبدو أنني سأموت يا جون.'

'لا تقل هذا الكلام.'

ولكنه أقسم:

'والله شكلي سأموت يا جون!'

كانت الشقة رطبة وباردة، وكان النور وقتها مقطوعاً في الشارع كله فترك ميخائيل الشباك الصغير مفتوحاً. وجلست أفكر فيما رأيت في حزن، بينما استدار ميخائيل وقال لي:

'هل تشرب شاياً يا جون؟'

لكنه لم يتم خطوة حتى خار وسقط. فتلقيته وأجلسته على الكنبة بجواري وهدأته فقال لي وهو يبكي ثانية:

'هل ترى ما حدث لي؟ يبدو صحيحاً أني سأموت يا جون!'

'لا تقل هذا الكلام... قل لي فقط ما الذي أتى بك؟'

'لا أعلم، لا أعلم يا جون يا بابا!'

'ما هذا الذي لا تعلمه؟ قل لي، مم تعاني؟'

فقال وكأنه يستعجب:

'هذه الدوخة!... دوخة غريبة ركبتني يا جون!'

'ألم تكشف في بني سويف؟'

هدأ ميخائيل قليلاً، ثم ضحك في استهزاء:

'بني سويف؟ هه، التومرجية هنا أفضل منهم يا جون يا بابا!'

'ولكن... كان من المفروض أن تكشف. ألم تكشف من الأساس؟'

'لا يا حبيبي، الأطباء هنا أفضل وأبرع.'

ثم صمت لحظة فقال:

'هل رأيت ما حدث مع عبدالله؟ إني أخاف أن أموت مثله الآن يا جون!'

فقلت له وأنا شارد:

'لا، لن يحدث.'

'رحمه الله. كان أخي، وإن كنت أخاف عليه أن يكون قد "سقط" يا جون يا بابا. وصدقني إني أخاف على نفسي الآن يا جون.'

فقلت له:

'لا، لا تخف.'

ثم سألته:

'هل أتيت إلى هنا لكي تكشف؟'

'نعم يا جون. عادل أعطاني خمسمائة جنيه لكي أكشف وأعمل تحاليل هنا يا جون يا بابا!'

أدركت وقتها حقيقتين: الأولى هي أن ميخائيل كان سيخنصر من تلك الفلوس لا مفر، أي أنه سيكشف عند أسفلها أطباء، وثانيهما أن ميخائيل سيموت. لم أعلم حقيقة متى سيحدث ذلك بالضبط، لكن ميخائيل كان قد وصل بنعمة الله إلى نهايات سكة حياته المأساة.

هذه الحقيقة الأخيرة جعلتني أرجع بالتفكير إلى الأمر الذي ضايقني طوال مضايقات روح عبدالله (أو ما هُيأ لي أنها كذلك) لي: فإلى أين يذهب ميخائيل إن توفى؟

ابن الجزمة كان قد عاش أتعسها حياة، ودُمرت جميع أحلامه، وانضحك عليه من الفتيات، وخسر كل ماله، واستعبده أخوه القديس عبدالله، وحتى أمه التي كانت تحبه كان عبدالله قد اشتراها في آخر يومين، وها الآن إن الأمراض قد ابتدأت تتناوب عليه من بعد أن مات أخوه، فإلى أين يذهب المضروب؟

كان بالطبع سيذهب إلى النار! لكني لم أرغب في التفكير بأن ميخائيل سيذهب إلى النار، وأردت أن أنقذه. وهنا لا أريدك أن تضحك عليّ: فكيف أنقذه؟ كانت هناك طريقة واحدة، وهي أن أجعل ميخائيل يتوب. بعد أن شطح ميخائيل كثيراً، وقال كل عجيبة في الدنيا، وألحد، وفعل كل شيء، كان يحتاج الآن إلى أن يتوب، لكي لا أظن أنه ذهب إلى النار. وكنت في أزمة وسخة لم ألم إلا شكرالله عليها، لأنه هو الذي لمني على عبدالله وميخائيل من البداية.

وبدأت العمل بسرعة، فسألت ميخائيل:

'هل تناولت أو اعترفت وأنت في بني سويف يا عم ميخائيل؟'

قال ميخائيل:

'لا تناول ولا اعتراف، لا تناول ولا اعتراف يا جون يا بابا!'

'ولماذا فقط ؟'

فصرخ ميخائيل ورأسه يسقط منه:

'إني خاطئ يا جون!'

ثم أخرج ميخائيل منديلاً قماشياً ضخماً، نف فيه نفة طويلة جداً، بعدها صرّح لي في انبساط:

'أنت قديس يا جون!'

شكرته وأنا أبتسم. ثم سألته بعدها في حيرة وأنا أبص في حجري:

'ألم يكن من الممكن أن تتناول في بني سويف يا عم ميخائيل؟ لقد كنت على الأقل خالياً من المشاغل.'

فانحرج ميخائيل وردد كأنه طفل تم تأنيبه:

'لا، لا أعلم!'

لم أعلم أنا أيضاً ماذا أقول بعد هذا.

'الصلاة بركة يا عم ميخائيل.'

كان ميخائيل مطأطأ الهامة، كأنه في حالة خزي وعار، ورد بصوت مخنوق:

'طبعاً. طبعاً يا جون يا بابا.'

'والإنسان بدون الله، مثل الإناء الفارغ.'

'صحيح. صحيح!'

'يجب علينا نحن البشر أن نلتجئ لله في كل حين، ولا نمل، لأن الله خالقنا يا عم ميخائيل.'

'عين العقل والصحة يا جون يا حبيبي، أنت قديس يا جون!'

لا أعلم لماذا لم أحب سماع هذه العبارة للمرة الثانية من فم ميخائيل. على أي حال، وضعت ذراعي حول ظهره، وقلت له متبعاً نفس الأسلوب الوعظي الذي سمح لي أن أندمج فيه:

'أنت تعلم يا عم ميخائيل أن البراءة الحقيقية من الأمراض ليست في يد الأطباء، ولا الممرضات، ولا أي أحد يا عم ميخائيل. البراءة الحقيقية من الأمراض هي من عند الله. ثم ماذا أخذنا نحن من العلم؟ همم؟ لا شيء. لم نأخذ أي شيء يا عم ميخائيل. مهما تقدمنا، ومهما ازداد علمنا، ليس عند الله سوى قطرة صغيرة من ماء بحر. هاه؟ والآن ماذا أريد منك؟ أريد منك أن تصلي لله، وتحكي له عن همومك، وتقول له كل شيء يا عم ميخائيل، كل شيء. الله وحده هو من يستطيع أن يشفيك، أو أن يحجز لك مكاناً في السماء يا عم ميخائيل. هاه؟'

كان ميخائيل، مع كل عبارة أتفوه بها، يهز دماغه في عنف، حتى لقد كان يجعل أنفاسي تتقطع وكلماتي تتذبذب، وعندما وصلت للاستفسار الختامي ('هاه؟') هز دماغه مرة أخيرة في قوة أشد من سابقاتها، وهتف:

'لم أكن أنك هكذا يا جون، مبارك أنت يا جون!'

فسألته:

'إذن، فهل علمت ما الذي يطلبه منك الله؟'

لم يبد على ميخائيل أنه فهم سؤالي، أو فهم مغزى كلامي السابق على نحو أدق، فحملق فيّ كأنه ينتظرني أن أشرح له. فقلت متحكماً في أعصابي:

'إن الله يريد منا أن نحضر أنفسنا للحياة الأبدية يا عم ميخائيل، هل تفهم؟ ما الأرض إلا مكان مؤقت فقط، وبعدها سنموت، وسنعيش مع المسيح في حياة أبدية هائلة.'

ظل ميخائيل يحملق فيّ بعدم فهم، فانبهار. كان معجباً بيّ الحزين لدرجة أنه لم يركز فيما كنت أقول.

'هل فهمت يا عم ميخائيل؟'

'آه، نعم نعم، نعم يا جون يا بابا.'

'إذن فهل ستصلي ؟'

صمت ميخائيل لحظة، حول وجهه فيها إلى الشباك، ثم رجع إليّ فقال:

'إذن فلتصل معي يا جون!'

لم أكن مستعداً أبداً لشيء كهذا. لذلك فقد انحللت لك منه وزحفت بعيداً شويا ورفضت بذوق وقلت له أن صلاته يجب أن تكون سرّية. لكنها كبرت في دماغه، فاضطررت أخيراً أن أطاوعه، لعل وعسى يأتي بفائدة.

وهو ما لا أظن أنه حدث أبداً. لقد صليت مع ميخائيل (جالساً في مكانه إذ تحجج بعدم إمكانيته الوقوف) أبانا الذي فقط. فأخذت أقول المقطع، فيردد ميخائيل ورائي كالببغاء. لكنه كان ببغاءً من نوع غريب، إذ كان يضاعف من قوة الصوت مرات ومرات ومرات، بحيث وصل به الأمر أننا عندما وصلنا إلى 'لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين،' (المقطع الأخير) (وكان هو عندها ما يزال يردد في 'بالمسيح يسوع ربنا' بصوت يصم الآذان،) أنه صرخ بقوة رهيبة، أقسم بالله أنها رجّت الحيطان، ثم جعلت شيئاً كريهاً يحدث: ذلك أن صبري طرق على الباب.

لم يأخذ أينا باله من أن أحداً يطرق على الباب إلا بعد فترة، فقد كان صوت ميخائيل قد فتق طبلتي أذنيّ، وكان هو سعيداً فخوراً جداً بالصلاة التي قام بها. لكن الطارق زاد في طرقاته بعدها قلقاً، فقمت وفتحت لصبري. كان بهدوم الشغل فكان وقتها نظيفاً، وكان يرتدي قميصاً أبيض في بنطلون أسود مخطط، وكان يحبك لك حول عنقه كرافتة أنيقة جداً من ألوان متعددة. ويبدو أن صبري الخاص بالشغل والملابس النظيفة غير صبري الخاص بالبيت والملابس الوسخة، فقد دخل لك جاداً وهز رأسه لي في تحية سريعة، ثم انطلق نحو ميخائيل في اهتمام. جلس صبري معنا قرابة ساعة إلا ربع، حكى خلالها هو وميخائيل عن كل شيء، وخاصة أمر الأطباء لأن ميخائيل كان قادماً للكشف ولأن صبري كانت لديه معلومات جمة عن تلك المسائل. حكى صبري عن الطبيب الذي فتح بطن ابن

خالته لأجل الزائدة مرتين، وعن الذي أعطى له وهو صغير علاج الضغط لشهور قبل أن يكتشف أن ليس لديه مرض بالضغط، وعن التي قالت لأم مينا أنها ستصبح 'أم شيماء' لما كشفت عليها بالأشعة التليفزيونية وهي حامل في مينا، وعن الذي 'لقطها' لما ذهب إليه أبوه فعرف أنه عنده سرطان بالمثانة من أول فحص. وحكى ميخائيل كذلك حكايات مسلية عن الأطباء الذين كشفوا على أمه في بني سويف فقال أحدهم: 'إنها لمعجزة أن تكون هذه المرأة حية إلى الآن!' وكيف أنهم داخوا في سبيل الاتفاق على تشخيص مشترك لعللها الكثيرة. وعن ذلك الطبيب الشاب الذي كانت عليه نوبتجية العناية المركزة ذات ليلة وهم بائتون معها، فغطى وجهها بالملاءة وقال لهم: 'البقية في حياتكم،' فما هي إلا لحظة وقامت الأم تسأل عن عبدالله. وعن الممرضة التي نصحتهم بالتماس سبيل طبيب يشتغل بالحجامة، وعن الثانية التي كانت تكشر في وجوههم لما يأتون إليها كل مرة، وعن الثالثة التي كانت تقول لميخائيل: 'هل رأيت البالطو الخاص بي؟ لقد ضاع يا خسارة،' فكان ميخائيل الشهم يعرض عليها أن تلبس سويتره فتضحك هي، وعن الرابعة التي كانت ترضع طفلها مكشوفة في حجرة الحكيمات، وعن الخامسة التي كانت لها مؤخرة بنت وسخة، وعن السادسة التي لمست ميخائيل من هنا، 'واحمر وجهها مثل الكركم يا بابا، هاه هاه هاه،' وعن السابعة التي كانت ترمش مثل المطروفة عينها، وعن الثامنة التي كان اسمها هناء، .... إلخ. فلما أرجعناه ثانية للأطباء، اظلم وجهه وحكى عن عمليته الأخيرة التي قام بها، كما قال، بإزالة 'الديسك.' ثم بدا حزيناً، مقهوراً يا عيني، وهو يقول:

'أطباء بهائم يا جون، لا أدري كيف تخرجوا من كلية الطب! الجراح ابن الأعمى قطع لي أثناء العملية العصب المسئول عن الانتصاب! بدون هذا العصب أصبح لا يمكنني الزواج الآن يا جون! حتى الآن عندما أدخل السينمات التي كانوا يعيبون علي دخولها يا جون، وأرى "مشاهد،" فـ..لا شيء! ولم أكن أنوي الزواج طبعاً يا جون، ولكن الشعور بأني لم أعد رجلاً يؤثر في نفسيتي يا جون.'

كانت معلومة جديدة، ولكنها لم تكن مهمة في شيء، فقد كان سيموت. سألت ميخائيل بعدها بعيداً عن الموضوع عن أمه، فتغيرت نبرته وبكى:

'ماما ليست بخير يا جون، ماما ليست بخير!'

اتفقت معه على أن أعود إليه في صباح اليوم التالي، بعد أن أفطر، أي قرابة الساعة العاشرة والنصف، بينما سيعتني به صبري إلى وقتها. ولكني عندما خرجت، وجدت لك عمك 'سيعتني به' قد تحجج بي وتركه. لكني لم أقلق برغم ذلك، لأني اعتمدت على 'أم مينا جارتنا الممتازة' أن تعتني به، فأم مينا لم تكن لتترك ميخائيل أبداً في مثل هذا الموقف، كنت متأكداً من هذا.

قضيت لك ليلة صعبة، لم يزرني فيها عبدالله للأسف، إنما تركني للأرق يعذبني، ولأفكاري السوداء، من ناحية خاتمة ميخائيل أولاً، ثم من حيث اختياراتي السابقة في الحياة وصداقاتي. كانت ليلة غريبة لم أمر بها من قبل، وقد اكتشفت فيها اكتشافات رهيبة أزعجتني طوال الليل، وكانت بداية النضج بالنسبة لي، على ما أظن.

وفي الصباح التالي قمت مبكراً، فشربت كوباً من الشاي، وعمل فادي كوباً من الشاي، بدون أن نتبادل أدنى كلمة. ثم مر علينا جلّاب ومعه 'العريضة،' كما أسماها، فطلب توقيعنا عليها لتُقدم للأسقف باسم كل طلاب بيت الأنبا تادرس، ذاكرين فيها بعض الحقائق الخاصة بتعامل شكرالله معنا في السكن، ثم ملتمسين من نيافته طرد المشرف الظالم، والإبقاء على الأستاذ عماد (مؤقتاً: حيث أن الأمور مع الأستاذ عماد لم تكن هي بالسمن على العسل على أي حال.) كان فادي يذاكر على مكتبه قرب الباب، فوقعها بدون اهتمام، وكنت أنا أتمتع لي بحبة شمس في البلكونة. لكن عندما جاءني جلّاب لكي أوقع بدوري، توقفت يدي قليلاً فوق العريضة، ثم سلمت القلم لجلّاب وقلت له:

'لا، أنا لن أوقع.'

'لماذا؟'

'أنا لن أوقع.'

اتهمني بالعمالة والجاسوسية والخيانة، ثم تركني بعد أن وعد أنه سيفضحني أشد فضيحة في السكن، فقد كنت أول من يرفض التوقيع. لكني لم أهتم، فقد كنت في موال آخر.

عندما نزلت لأسفل، كانت حالتي المعنوية سيئة جداً. كان رمسيس يعلق في سقف شق حيطه دوبارة عليها بعض الألعاب الحقيرة، وكانت حنان تخيط قبالة فرج كالعادة، ولم يكن عمك مجدي موجوداً يتربص بالعابرات. سرت حتى نهاية الشارع، وصعدت للدور الثالث حيث تركت عمي ميخائيل. لم أخف أن أجده ميتاً، فقد كنت أعلم أن أوانه لم يحن بعد، ولابد أنه سيخرج دين الذين خلفوني قبل أن يفعلها.

فتح لي ميخائيل بنفسه، وكان وحده. فسألته عن ليلة أمس، فقال لي كلاماً طيباً في أم مينا كما توقعت. كان شعره منكوشاً ووجهه متسخاً، ولكنه كان قد استبدل ملابسه قبل أن ينام ليحافظ على الملابس الخروجي لرحلة اليوم. فسألته أن يغسل وجهه، فذهب ناحية طرقة الحمام والمطبخ بتطوح شديد فجريت لك بسرعة وساندته قبل أن يسقط. فبكى ميخائيل:

'أتعبتك معي يا جون يا بابا!'

'لا تقل هذا الكلام يا عم ميخائيل، وهل فعلت شيئاً يُذكر؟'

اغتسل ميخائيل وتمام التمام، ثم لبس هدومه بنفسه، وبعدها جزمته الضخمة الغريبة، فطلب مني أن أحضر له محفظته من فوق الكوميدينو في غرفته. فذهبت، ووجدت المحفظة الجلدية السوداء المتآكلة. لكني تأخرت وأنا أسأله:

'أين يا عم ميخائيل؟'

'هه؟ عندك فوق الكوميدينو يا جون يا بابا. أليست موجودة إذن؟ هه؟'

'انتظر دقيقة يا عم ميخائيل... كيف حال البشمهندس عادل؟'

'مسكين عادل!'

'كان سيموت على عبدالله.'

'زوجته مريضة. لا أعلم ما الذي جعل عادل يتزوج تلك المرأة يا جون يا بابا.'

'ربنا أعلم.'

'آه لو رأيتها يا جون يا بابا. جميلة جداً هي يا جون، لكن فيها كل أمراض الدنيا. الإنسان منا يحتاج إلى امرأة قوية يا جون يا حبيبي، ليست مثل بربارة امرأة عادل، بربارة هذه ستموت يا جون.'

'فأل الله ولا فألك.'

لكن ميخائيل اكتسب صوته رنة ضاحكة وهو يقول:

'لتصدقني ستموت يا جون. هه هه هه، ستموت، وسنجعل عادل يتزوج من واحدة أفضل بكثير يا جون يا حبيبي. سأختار له بنفسي!'

إن عشت يا ميخائيل. ولم يتكلم لفترة طويلة، ثم عدت إليه بالمحفظة فوجدته شارداً.

قرر أنه سيذهب أولاً إلى عيادة الدكتورة عزة، طبيبة الأمراض العصبية التي تشتغل معه في المستوصف أو تزوره، أو يعرفها من جهنم، شيء من هذا النوع. كان يتطوح لك بطريقة مقلقة، وقد شاهدنا الشارع كله في طريقنا لبداية الشارع. وتطفل علينا وهبة وشريف. وعرض عليّ رمسيس أن يساعدني لكني رفضت في تحفظ. وتكلمت حنان مع ميخائيل في تعاسة على حالته، وحتى قوقة بصت علينا من بلكونتها وسألت ميخائيل بلهجة تفيض بروح الزمالة:

'ما لك يا ميخائيل؟...'

أخذنا تاكسياً حتى المكان المراد، ولم يرض ميخائيل إلا وأن يدفع للسائق الحساب من جيبه. كان الشارع قصيراً يبدأ من تقاطع بين شارعي رزق باشا وكليوباترا، يتميز بوجود سوق دائم للخضراوات والجزم الرخيصة فيه ثم كنيسة. وكان ينتهي بتقاطع آخر بين شارعين أنا نفسي لم أكن أعلم اسميهما. وكانت العمارة

تقع في النصف الأخير به. اعتكز عليّ ميخائيل حتى وصلنا للعمارة التي أقيمت مكتبة في قاعها، ثم صعدنا على درجات بيضاء قديمة، أطرافها مبرية، إلى الدور الثاني، حيث وجدنا أنفسنا في متاهة معقدة جداً من ممرات كثيرة، أغلبها يؤدي إلى عيادات تقرفص أو وقف حولها مئات من البشر. لكن ميخائيل كان على مرضه واعياً، فأشار لي حتى وصلنا لعيادة الدكتورة عزة.

تركت عمي ميخائيل في العيادة ونزلت لأشتري لنا ساندويتشات فول وطعمية بحسب طلبه. وحينما عدت وجدت ميخائيل في سلام عجيب قلما رأيته. وبعد أن أكلنا قال دون أن ينظر إلى وجهي:

'لقد دخنت لي سيجارتين في أثناء غيابك يا جون.'

تظاهرت أني لم أسمع. فعاد يقول:

'دخنت لي سيجارتين. قلت لعلهما يزيلان الدوخة!'

وبعد فترة جاء دورنا في الكشف. كانت الدكتورة عزة سيدة محجبة أنيقة، ولما رأت ميخائيل قامت من مكانها ورحبت به ترحاباً ممزوجاً باستغراب:

'أهلاً يا ميخائيل. كيف حالك يا ميخائيل ؟'

فصافحها ميخائيل بقوة وقال لها في أي اشتياق وأي شجى:

'كيف أخبارك يا دكتورة ؟'

'أنا زي الفل.'

ثم جلَست.

'المهم كيف أخبارك أنت ؟'

جلس ميخائيل وجلست (بعد أن هزت لي الدكتورة رأسها في تحية لبقة،) فقال ميخائيل وهو يميل ناحيتها على المكتب:

'تعبان يا دكتورة.'

'لماذا يا ميخائيل ؟ ما الذي أرجعك من بني سويف أساساً يا ميخائيل ؟'

فقال ميخائيل وهو يمسح تحت أنفه:

'الإجازة يا دكتورة. أريد من حضرتك أن تفحصيني وتعطيني مداً للإجازة. وتعطيني روشتة يا دكتورة.'

'إجازة ماذا يا ميخائيل؟ ألم نقل لك مائة مرة دعك أنت من هذه الأمور تماماً واتركها لنا لا نريد منك حضوراً ولا غيره!... ما الذي تشكو منه هذه المرة؟'

فقال ميخائيل:

'دوخة يا دكتورة، دوخة لا أعلم لها سبباً!'

'هل تأخذ من الدواء الذي وصفته لك بانتظام يا ميخائيل؟'

'نعم يا دكتورة.'

'وفيتامينات ب ١٢ يا ميخائيل؟'

'كل شيء يا دكتورة.'

صمتت الدكتورة شويا، فحصتني فيها بنظارتها، ثم سألت ميخائيل:

'ابن أخيك هذا يا ميخائيل؟'

قلت في نفسي أنها لابد بينها وبين ملقي عرق مشترك. لكن ميخائيل قال بفخر، مشيراً إليّ:

'هذا البشمهندس جون، قريبي وفي مقام ابني.'

للحق تأثرت بالعبارة. فابتسمت لي الدكتورة وسألتني:

'مهندس؟'

فأخبرتها أني بكلية الهندسة، في السنة الأخيرة لقسم المدني. فاتسعت ابتسامتها وسألتني:

'أنت تعرف إذن أحمد طارق إسماعيل؟'

كان الفتى بالفعل من دفعتي في الكلية وكنت أعرفه، فأجبتها بذلك. فقالت وهي تشير لنفسها:

'أحمد هو ابن التي تراها أمامك هذه.'

ثم ضغطت زراً في مكتبها فأتتها الفتاة المساعدة العاملة الممرضة، فقالت لها:

'الأستاذ ميخائيل والبشمهندس يأخذان قيمة الكشف وهما مغادران يا عزيزة.'

فهزت الفتاة رأسها وانصرفت. وقال ميخائيل:

'لماذا فعلتِ هذا يا دكتورة؟'

'هذا أقل ما يجب يا ميخائيل.'

'لكننا كان يجب أن ندفع قيمة الكشف مرتين يا دكتورة.'

لأني إنسان على نياته جداً، ولأن الدكتورة على ما يبدو كانت على نياتها أيضاً أو أنها كانت طبيعية لا تعرف كيفية التعامل مع المجانين من أمثال ميخائيل، فقد اعتبرنا أن ما قاله ميخائيل كان مجاملة للدكتورة فقط. لكن ميخائيل لم يكن يجامل أبداً. طلبت منه الدكتورة أن يصعد لسرير الكشف، فعاونته أنا. خلعت له سويتره الضخم العجيب، وجعلته يجلس بظهره على الشيزلونج، ثم تركته يفك أزرار بنطلونه بنفسه. في كل هذا كنت أشم رائحة مألوفة منفرة من ميخائيل لكني لم أتذكر بالضبط ماذا كانت. فحصته الدكتورة من فوق لتحت. ثنت له ركبتيه وضربتهما بالمطرقة، ثم سمعته بالسماعة فأخذ يكح، ثم أخذت تتكتكه بإبرة فقال ميخائيل أنه لا يحس بأي شيء في أي شيء. بعد هذا تركته الدكتورة فرجعت أنا للشيزلونج لأعاونه في ارتداء ملابسه. كانت الطبيبة تبدو قلقة بعد أن فحصت ميخائيل، ثم قالت له أن علته ليست عندها، ولكنها تنصح بالكشف عند طبيب أمراض كلى.

'مسالك يا دكتورة؟'

أوضحت له أن طبيب أمراض الكلى غير طبيب المسالك، فالأول دكتور باطنة بينما الثاني جراحة، كما قالت. ثم شخبطت بشيء في دفتر روشتات ورقه أزرق ومصقول فقالت لميخائيل أنها كتبت له بعض الأدوية المفيدة حالياً وبالأخص دواءً

مهماً يساعد في زيادة تدفق الدم لخلايا المخ، مما سيجعله يضيع الدوخة التي يشتكي منها. فأيدها ميخائيل:

'إن الدوخة فقط هي ما يتعبني يا دكتورة.'

لكنها قالت له أن كل ما كتبته مهم، ويجب أن يشتريه كله. فلم يظهر عليه الاقتناع، وأدركت أنه ستكون لنا معمعة في هذا الأمر لاحقاً. وهنا انكشف المستور وبان. فقد فوجئت لك، أنا والدكتورة والله، بأن عبدالله بعد أن أخذ روشتته وورقة إجازته التي جادل كثيراً لأجلها، أنه قال:

'أريدك الآن أن تكشفي على البشمهندس جون يا دكتورة. إنه شاب كما ترين، وجسمه ضعيف وصحته تعبانة، وأنا أريد الاطمئنان على صحته يا دكتورة لأن أمه (أختي، أخت فاضلة) وأباه لن يسامحاني أبداً إن كنت قد قصرت في الاعتناء به يا دكتورة. هه؟ هيا يا جون، رح لعمتك الدكتورة لكي تفحصك وتطمئن عليك. إني آسف لأني سأتعبك معي يا دكتورة.'

بالطبع كان موقفاً لا يحتاج لوصف. حاولت الدكتورة طبعاً في البداية أن تسايس ميخائيل وتقلب الموضوع ببسمة وثقة، ولكن ميخائيل كان جاداً تماماً ولم يدعني أنا حتى أجادل بشأن كوني لا أريد أي فحص طبي على صحة أهلي. في النهاية استسلمت الدكتورة فطلبت مني أن أستلقي على الشيزلونج. فنمت ورفعت ملابسي وأنا في قمة الحرج، لأني كنت أشعر بخجل شديد لكون التي ستفحصني امرأة. وقد قلبتني هي سريعاً على أي حال فكتبت لي روشتة صغيرة تظاهرت بأني نسيتها، وتظاهرت هي بأنها لم تلاحظ أني نسيتها، وقد خرجت مع عمي ميخائيل دون أن يلاحظ هو الآخر.

عندما خرجنا، تغير لك مزاج ميخائيل فجأة، كأنه كان إنساناً آخر بالداخل، فسخر من الطبيبة وقال:

'هاه. أهذه دكتورة؟ إنها دكتورة لا تفهم شيئاً يا جون. قالت لي اكشف كلى وأنا ليس عندي شيء في الكلى يا جون يا بابا.'

ولكني اختلفت معه، وقلت له أن ما قالته الدكتورة هو بالضبط ما يجب أن يفعل. ولكنه لم يستمع إلى كلامي، وشطح لدرجة أنه قال أنه لن يشتري أي دواء من أدوية الروشتة، معللاً ذلك بـ:

'إنما هو بعض الأرهاق يا جون يا بابا. ولكن ما سر هذه الدوخة الغريبة؟ تت!'

ساعتها وقفت له في الشارع فقلت له أنه لو فعل ذلك والله لأتركه فوراً وأرجع للسكن. فتغير وجه ميخائيل وصار شاحباً جداً، وقال لي وشفتيه تهتزان في ألم وضعف:

'أفتتركني يا جون يا بابا؟'

'نعم.'

فبدأ يتوسل إليّ، ولكني وقفت له كالحجر ولم أنزل عن كلمتي. وربما لم يكن الوقت قد حان بعد لكي أرى نفسي وقد وقفت هذه الوقفة الرجولية لعمي. كانت أول مرة لي أقف مثل هذه الوقفة، أو أصمم على أي شيء مثل هذا التصميم الجاد. كنت أعتبر نفسي عيلاً فلم أكن أدخل نفسي في مواجهات مع أي مخلوق يفرض كلمته عليّ، وربما كانت مواقفي مع شكرالله خير دليل. ثم، ثم أني لم أكن حقيقة أهتم بأي أحد لكي أقف فوق رأسه وأطلب منه أن يطيعني لأجل مصلحته. كان هذا السلوك غريباً عليّ إذن. فبالإضافة إلى كون عمي ميخائيل رجلاً أكبر مني بمراحل، وكنت أعتبره (في السابق طبعاً) مثلاً، أو قل يا أخي رجلاً دماغه كبير كنت أستمع إليه، فإني لم أكن أتوقع أن تتقدم العلاقة بيني وبينه إلى الشكل الشخصي الذي كنت أخاف منه.

على أية حال فقد وافق ميخائيل بعد عذاب، بعد أن تأكد فعلاً من أني كنت سأتركه. وكانت هناك صيدلية على أول الشارع (عند بائعي الفجل والخس ثم بائع جزم على قد حاله اختار الانعزال ببضاعته قرب نهاية الشارع،) فتوجهنا لها. لما دخلنا وجدنا رجلاً في الخمسينات أو في الستينات، شعره أبيض وأسود، وسميناً،

فأعطيته أنا الروشتة فأخذها بدون كلمة وأعطانا ظهره ليحضر البضاعة. جعلت ميخائيل يجلس على كرسي مبطن فسقط لك عليه سقوطاً. كان ميخائيل يلهث، ووجهه شاحب ومتسخ، وشممت الرائحة إياها مرة أخرى. ثم حضر إلينا البياع أو الصيدلي مرة أخرى فقال أن الحساب ٢٠٣ جنيهاً. ساعتها وجدت لك ميخائيل يفوق ويركب أمه النشاط فيشتم، ويزعق ويثور، وقام وقعد وعمل كل شيء، وقال أنه لن يشتري شيئاً، ولكني هددته بأني سأتركه، فاظطر أن يستسلم رغماً عنه وهو يدوس على ضروسه، ثم سقط مرة أخرى. وبعد أن سقط حلف برأس أخيه القديس عبدالله إلا وألا يشتري غير الدواء المسئول عن زيادة تدفق الدم لخلايا المخ وحده، محللاً هذا بـ:

'إنما الدوخة فقط هي ما يتعبني يا جون يا بابا. ولكن ما هذه الدوخة الغريبة يا رب ؟ تت!'

بالطبع أخذنا وقتاً، أنا والبياع أو الصيدلي، حتى نتفق على ما هو ذلك الدواء المسئول عن زيادة تدفق الدم لخلايا المخ. فقال الرجل في النهاية أنه لابد أغلى الأدوية ثمناً. غير أني مسكت له علبة أقراص كانت واقفة فوق سطح المكتب، وقرأت له: 'لتغذية خلايا المخ وزيادة معدل الدورة الدموية،' والحمد لله لم تكن أغلى الأدوية ثمناً.

حسب الرجل الحساب فقال أن الحساب أصبح سبعة وخمسين جنيهاً وثمانين قرشاً بالتمام والكمال. ثم طلب ميخائيل كوب ماء، فأحضره الرجل، ففتح علبة الأقراص وابتلع قرصين مرة واحدة، ثم بلّع بالماء حتى آخر الكوب. ساعتها كشّر الرجل وقال:

'لتدفع الحساب يا سيدي في الأول وبعدها ابلع!'

طلب مني ميخائيل أن أخرج محفظته فأدفع الحساب. كان دائخاً وشاحباً جداً. أخرجت محفظته مراعياً قدر الإمكان أن أقوم بكل شيء أمامه وأن ألمس

الفلوس بحذر، ودفعت الحساب. فأخذ ميخائيل الباقي في جيب القميص العلوي وقال لي:

'هيا يا جون يا بابا.'

بعد أن خرجنا أوشك صبي نقاش صغير يركب دراجة أن يقتل ميخائيل. كان يلبس ملابس مجيّرة بالكامل، ووجهه أسمر وقذراً. وقد اعتذر وانطلق بسرعة فشتمه ميخائيل شتيمة وسخة من الخلف. ولم يكن ميخائيل قد تخلص من عكننته وقرفه لما أوقف تاكسياً مشوحاً بذراعه الحرة (غير المستندة عليّ) بشدة مما جذب الأنظار، فوقف لنا سائق شاب، فمد رقبته من الشباك وسألنا بتكشيرة ما الأمر، فلما أخبره ميخائيل بالعنوان، أدخل الرجل دماغه ثانية وقال أنه لن يذهب إلى هناك. فشتمه ميخائيل أيضاً بصوت مرتفع وهو يتابع انطلاق سيارته من حولنا، وقال:

'ما ابن المومس هذا؟ هل يختار السائقون الأماكن التي نريد الذهاب إليها!'

كان منظرنا بصراحة لك أن تتصور، ورأيت عدة فتيات محجبات في ملابس طالبات ثانوي ينظرن إلينا ويضحكن، وقد لفتنا أنظار كل وغد في الشارع. ثم فجأة شدني ميخائيل من ذراعي لحد أني انجررت خلفه ووقع قلبي في جزمتي بصراحة.

'تعال يا جون.'

أخذ ميخائيل يكافح حتى وصلنا لمكان ما غريب بعد ناصية شارع كليوباترا. فتوقف ميخائيل وهو ينظر حوله في عبط. ثم بدا عليه أنه سينهار قدامي فأمسكته بين يديّ.

'أرجوك تمالك نفسك يا عم ميخائيل.'

بدأ يتهته لك، وحاول الوقوف فعلاً لكنه فشل، فجاء إلينا رجل عجوز، له كرش كبيرة جداً، ويلبس بيريه، فعاون ميخائيل على الوقوف، ثم أشرت لتاكسي كان ماراً، فأركبت ميخائيل وتحركنا. داخل التاكسي أفقت ميخائيل بعد صعوبة. وقد

أخذ هو وقتاً حتى يرجع مثلما كان قبل أن يقع. فتحت له الشباك المجاور لكي ينعشه التيار البارد، وجذبت نظاراته ومسحت له حول عينيه بمنديل ورقي، من عندي والله.

بعد هذا انسجم لك ميخائيل مع السائق. كان رجلاً في الأربعينات تقريباً، أكثر علامة تميزه هو شعره الخشن الطويل الداكن السواد وشنبه الغزير بنفس الصورة. انبسط معه ميخائيل للغاية، وأخذ يمزح معه، ثم حكى له عن المطعم الذي اتضح أنه يريد أن يذهب إليه في شارع ناظم حكمت: مطعم وحاتي أخبار اليوم. قال ميخائيل أنه مطعم ليس له مثيل، حيث يقدم أفضل كباب وشاورمة وكفتة وكبدة وفراخ في المدينة. ولا سلطة الطحينة. يقدم المطعم 'العامر' سلطة طحينة يعبدها ميخائيل عبادة، بل في بعض الأحيان كان يمر على المطعم خصيصاً ويدفع لأحد الفتية العاملين خمسة جنيهات فيحصل على علبة سلطة طحينة كبيرة يغرف منها في البيت على مهله وتكفيه لأيام. وقال ميخائيل أيضاً أنه يحب من الفراخ 'الفحم،' لأنه اعتاد عليها من زمان، ولأن الفرخة عندما تُشوى على الفحم تطيب بالراحة وتحتفظ بطعمها إلى أقصى درجة ممكنة. ثم انفعل ميخائيل واستدار لي برأسه وصاح:

'ستأكل أكلة، عمرك ما أكلت مثلها يا جون!'

فضحكت.

لف بنا التاكسي البلد كلها لكي يصل إلى الشارع المطلوب من طرف ميخائيل. من شارع كليوباترا إلى الإشارة. ومن الإشارة إلى شارع المحطة. ومن شارع المحطة إلى ميدان البنوك (حيث كان هناك تمثال عمك طلعت حرب: نسخة طبق الأصل من التمثال الموجود في وسط القاهرة.) بعد هذا تحرك بنا السائق (من خلف قصر الثقافة) خلال شارع متعرج ضيق جداً، لم أدخل فيه من قبل، إلى الظاهر. ومن الظاهر أخذنا كوبري الناصر إلى شارع ناظم حكمت. دفع ميخائيل للسائق عشرة جنيهات كاملة، ولم يقبل أبداً بأن يرجع له الباقي. ثم مسكت لك يد عمك

ميخائيل لكي نعبر إلى الناحية الأخرى من الشارع، حيث كان مطعم وحاتي أخبار اليوم.

أعتقد أنها كانت أصعب مهمة في خلال هذا اليوم. فإن عمك ميخائيل على الرغم من أنه كان يتطوح بشكل أقل فعلاً، لكن أعصابه كانت مفلوتة، بحيث أنه كان يمسك يدي، ثم يفلتها، ثم يعود ويضغط عليها بقوة، وفي النهاية يتركني تماماً ويندفع نحو منتصف الشارع متباهياً بقلة تطوحه، فتكاد تدهسه عشرات السيارات، وأكاد أُقتَل أنا أيضاً في سبيل إنقاذه. لكننا عبرنا والحمد لله فقال لي ميخائيل، وهو يرفض أن يجعلني أمسكه، كأنه يتعجب:

'هذا الدواء ممتاز يا ولد يا جون. الدوخة الآن راحت تماماً!'

كان منظره محزناً بشعره غير الممشط وذقنه غير الحليقة وملابسه المكسرة وشحوب وجهه واتساخه بالغمص. كدت أبكي عليه. لكني استجمعت نفسي وقلت له أن هذا التأثير ربما ما هو إلا تأثير مؤقت، وأن عليه أن يكشف عند دكتور كلى كما قالت الدكتورة. غير أنه لم يستمع إليّ، ومشيت خلفه حتى رصيف آخر (كان هناك رصيفان) فرأيت اليافطة الكبيرة لـ'مطعم وحاتي أخبار اليوم، من عام ١٩٤٨،' ثم رأيت بجانب المطعم عشرات الدكاكين الصغيرة للرفّائين والإسكافية وبائعي العطور المركبة وخلافه، وكان هناك عدد كبير من الصبيان الذين يقومون بتلميع الجزم على صناديقهم الخشبية. كان مكاناً مزدحماً بالحركة.

ونحن على بعد خطوتين من المطعم، إذا بالأستاذ ميخائيل يمسكني بقوة من ذراعي، فيهمس لي في داخل أذني بعصبية:

'أريد أن أطلب منك شيئاً يا بابا وإياك أن تعارضني!'

دلكت أذني بإصبعي فسألته ماذا يكون هذا الشيء. فقال:

'سأطلب بالداخل نصف فراخ فقط، ولا أريدك أن تطلب شيئاً. إن جاء الصبي فقل له أنك لا تريد شيئاً. ها، فهمت؟'

أهذه هي ؟ بسيطة. قلت له أني لست جائعاً وأني لن آكل وأني سأنتظره مكاني بالخارج. فتعصب لك ميخائيل جداً ودمه انحرق، ورأيت وجهه الذي كان شاحباً أحمر مثل الكركم.

'جون! لا تعارضني يا جون!'

لم أفهم. كان المشتغل على آلة الشاورمة بالخارج يقوم بتقشير كتلة اللحم بسكاكينه الطويلة التي تذكرني بالأفلام الصينية، وكانت هناك طاقة صغيرة من الناحية الأخرى، حيث المطبخ، يخرج منها دخان شمه ميخائيل بتلذذ واشتهاء وهو يدخل. بالداخل كانت هناك ترابيزات عديدة مغطاة بطبقة من المشمع، في منتصف كل ترابيزة فازة صغيرة بها زهور صناعية، وكانت بالمكان ضجة وزحمة وعيال صغار يجرون تحت قدميك. لكن ميخائيل اختار لنا ترابيزة بعيدة جنب الواجهة الزجاجية كانت الشمس وقتها تغطى منتصفها، وكان بإمكاننا منها أن نشاهد مطلع الكوبري. كانت الكراسي خشبية طويلة، من تلك التي لها مساند ظهر طويلة جداً، وكانت منجدة ومحشوة جيداً، ومغطاة أيضاً بطبقة من المشمع. جلست أمام ميخائيل فقال لي ميخائيل:

'لا تنسى ما نبهت عليك به بالخارج يا جون.'

قلت له أن عليه ألا يقلق. ثم نادى ميخائيل بأعلى صوته:

'حسن!'

كان هناك شيء ما في الطريقة التي نادى بها جعلت أعيناً كثيرة تتطلع إلينا. ثم كلها لحظات واقترب منا شاب أسمر في زي أحمر متسخ، فسأله ميخائيل بمودة:

'كيف حالك يا حسن ؟'

'تمام يا باشا، الطلبات ؟'

'وكيف حال المعلم طقشة ؟ لم نعد نراه يعني.'

'زي الفل. الطلبات يا باشا ؟'

'نصف فرخة حلوة من عندك يا حسن. وتكون مشوية على الفحم آخر سواء. وترش عليها خضاراً يا حسن. ولا تنسى الطحينة يا حسن! هاه هاه هاه. أنا دائماً آتي إلى عندكم هنا يا حسن لأنكم أناس ذوق وكلكم أحبائي: المعلم طقشة وكل الأساتذة الذين يعملون معك.'

هز الشاب رأسه بعدم اهتمام وشكره. ثم التفت إليّ وسألني، فلما أخبرته أني لا أريد شيئاً غادر بدون نقاش. وهنا التفت نحوي ميخائيل فقال وهو يضحك في انبساط:

'الآن ستأكل ما لم تأكله في حياتك من قبل يا جون! ولكن هذا المكان سر بيني وبينك، أصلي لا أحضر هنا إلا أحبائي فقط.'

لم أفهم كيف كان بإمكاني أن آكل وهو طلب مني ألا أطلب شيئاً، لكني اخترت الصمت وقلت أتفرج عليه. ثم غطت الجدية ملامحه فجأة، فقال:

'هل تعلم يا جون يا بابا؟ أهم شيء عند الإنسان أنه يُسعد نفسه. كثيراً من قبل يا جون عابوا عليّ وقالوا عني أني أضعت فلوس أبي وكل شيء، لكني عشت حياتي يا جون. ما كنت لأستفيد يا جون لو مكثت لهذه السن وأنا ضاغط على نفسي أو أطيع من حولي فقط.'

ثم صب من إبريق ماء أحضره لنا مراهق يرتدي نفس زي المكان، فتابع والكوب في يده:

'هناك كلمة قالها لي أحد الرهبان زمان. كان صاحبي واسمه عماد نخلة قبل أن يترهبن. شششفف. قال لي، بعد أن زرته في دير الأنبا صرابامون: ''يا ميخائيل إن أسوأ شيء في هذه الدنيا هو أن تفعل ما يريده الآخرون منك. يجب عليك أن تفعل ما تريده لنفسك فقط. شششفف. لا تترك اللجام لأحد آخر يسوقك يا ميخائيل.'' فقد كان أبو وأم عماد يريدانه أن يتخلى عن فكرة الرهبنة، لكنه لم يطع إلا رغبات قلبه فقط يا جون. وهكذا أنا أيضاً! فعلت كل ما أحبه في هذه الحياة،

ولا أكذب عليك يا جون فلم يتبق هناك أمامي شيء لم أفعله، وأظن أني استفدت يا جون يا بابا!'

لم يكن يبدو عليه أنه قد استفاد أي شيء، فسألته:

'ماذا استفدت؟'

فقال:

'استفدت حريتي يا جون!'

'آه.'

'واستفدت أيضاً معرفتي يا جون يا حبيبي. إن الإنسان هو عبارة عن روح يا جون يا بابا، وهذه الروح هي عبارة عن كائن يحب المعرفة. هل نمنع الروح من المعرفة يا حبيبي؟'

لا بالطبع. يجب أن تأكل الروح من أغلى المطاعم، وتركب كل النسوة، وتنفق عليهن ويضحكن عليها، ولا ضرر أيضاً من بعض الأفيون والتراما من عند صبري، فتصبح الروح عارفة فاهمة. غير أني سألته مضيعاً الوقت وأنا أحاول تمزيق المشمع فوق الترابيزة باحثاً عن نقطة ضعيفة:

'إنما هل استفدت كثيراً يا عم ميخائيل من المعلومات التي قرأتها؟'

فرجع ميخائيل حبة إلى الوراء، وقال بحكمة:

'إننا في عصر العلم يا جون يا بابا. هل تعلم؟ إننا نعيش في بركة كبيرة يا جون لم تكن متاحة لمن قبلنا. فالآن يمكن لأي إنسان أن يحصل على أي معلومة هو يريدها بضغطة زر واحد، والكتب موجودة في كل مكان يا جون لكي تساعد الناس الذين يريدون أن يصبحوا علماء. هذا لم يكن موجوداً أيام زمان. هه هه هه، أيام دالتون وإديسون وهكسلي، لم تكن هذه الأشياء موجودة يا جون. لقد استطاع أولئك الناس التفوق فقط بمجهودهم الخاص، أما الآن، فلا يحتاج الواحد منا لأي مجهود لكي يصل إلى ما وصلوا إليه.'

ثم سكتّ قليلاً، فقلت له:

'إذن فأنت ترى أنك قد أصبحت عالماً بالمعلومات التي قرأتها؟'

'أم ماذا تظن يا جون؟ فأنا قد استفدت كثيراً من الكتب التي قرأتها يا جون، ومن العلم الذي درسته بنفسي. أستطيع أن أقول لك الآن يا جون أني أعلم في سني الصغيرة هذه أضعاف أضعاف ما يعلمه أي إنسان في سني. لكن إلا العلماء بالطبع يا جون، فلهم مكانتهم واحترامهم وأنا أحترمهم يا جون.'

سعلت وأخفيت وجهي لكي أخفي ضحكة، ثم سألته:

'ولكن الكتب التي رأيتها عندك كانت قديمة يا عم ميخائيل، أقصد أغلبها، أو ما رأيته منها يعني.'

قال ميخائيل:

'العلم هو كائن ثابت يا جون، هو هو في كل زمان.'

'يا سلام؟'

'نعم. فأنا بالنسبة لي العلم هو ما أبحث عنه. أجده في كتاب طبعة خمسة وثلاثين، طبعة ألفين وواحد، طبعة القرن الثامن عشر، هو هو العلم يا جون. خذ عندك مثلاً أجاسي، لويس أجاسي. أجاسي وضع كتابه المسمى ''نمو القارات'' في القرن التاسع عشر، هل يعني هذا أنه الآن ليس من المفروض أن نقرؤه؟ لا طبعاً يا جون، الكتاب هو الكتاب في كل زمان يا جون.'

ثم قال عبارته الأزلية التي رددها لي حوالي خمسين ألف مرة من قبل:

'إن الكتاب يا جون يا بابا، جسر!'

فأخذت أضحك، إنما على خفيف، وضحك هو لي بالمثل، ربما ظناً منه أني كنت أضحك على حماقتي الماضية قبل التنوير الذي أعطاني إياه.

جاء حسن بالطلبات فرص الأطباق كلها أمام ميخائيل، وشعرت ناحيتي بالحرمان، وبالجوع. لم أكن قد فهمت نظرية ميخائيل بعد، ولا لماذا طلب مني ألا أطلب شيئاً. والحقيقة أنها كانت نظرية غريبة قليلاً: فقد كان ثمن ربع الفرخة في المحل أربعة جنيهات ونصف، وثمن النصف هو سبعة ونصف: هناك جنيه ونصف

فارق سعر إذن، وهذا الفارق أراد ميخائيل أن يعطيه بقشيشاً لـ'حسن.' وهو ما بدأت أفهمه بالتدريج لما قرّب ميخائيل الأطباق مني وطلب مني أن آكل معه. فرفضت في البداية، غير أني لم ألبث أن تنازلت بسرعة خوفاً على صحته، فقد أخذ لك يصرخ في وجهي بصوت مكتوم:

'جون! افعل ما أقوله لك يا جون!'

واحمر وجهه وازرق، وبدأ يخبط على الترابيزة بقبضته. فأكلت ملء فمي.

'ألذ مشويات تجدها هنا يا جون. هنا عندهم أمانة وأيديهم فرطة، وأكلهم نظيف كذلك. أنا لي زمان أجيئ هنا يا جون، وأنت أيضاً: أنت أيضاً يجب أن تأتي هنا كثيراً يا جون. أنت شاب ولكن ما زالت صحتك تعبانة. من وقت لآخر ادخل المطاعم يا حبيبي، لا تحرم نفسك من شيء. كلها فانية يا حبيبي صدقني واسأل عمك. كم من مرة من قبل حاولت أن أغذيك يا جون وأعتني بك، ولكنك لم تكن تستمع إلى كلامي أبداً يا جون!'

بغض النظر عن كذب الادعاء، لكني كنت قد بدأت أقتنع بوجهة نظر ميخائيل، على الأقل من ناحية الأكل والأكلات. كانت الفراخ أكثر من رائعة، وحتى الحبيبات المحروقة بفعل شواء الفحم كانت تذوب في الفم ذوباناً. وكله كوم والطحينة كوم، والسلطة الخضراء، والعيش الطري. لقد أكلت حقاً ما لم آكله من قبل في حياتي مع ميخائيل.

لم يعتقني شكرالله عندما رجعت. وجدته مستحماً وتفوح منه رائحة الصابون، في جلباب نظيف لونه يميل للكاكاوي. وقف في انتظاري عند باب السكن كالقناصة، ومسكني، وسألني، بتفصيل شديد، عن كل أحداث اليوم، وأين ذهبنا، وكم أنفقنا، وماذا قالت لنا الطبيبة، وأين ميخائيل الآن، وماذا أظن في مرضه، .... إلخ. فلما قلت له أني أوصلته ليرتاح في بيت أبيه، زعق لك:

'أفتركته!'

قلت بسلام:

'معه صبري.'

'سيشممه، المسكين، ويقتله، وسنروح في سين وجيم!'

ثم طلب مني أن أحكي له، ثانية، بالضبط عن مرضه. استمع شكرالله إلى المعلومتين القليلتين اللتين تكونتا لدي عن حالته فابتدأ يقول كلاماً غريباً، لم يخرج من قناعاته ولا من مخه أساساً، مجرد كلام في كلام.

'ألا يكون إخوته قد منعوا عنه العلاج، المضروب، وهو في بني سويف وهو ما بدارٍ؟... هاه؟'

و'أفتقول أنها قالت يجب أن يكشف عن دكتور كلى وليس دكتور مسالك؟ أتقول أن عنده دوخة؟ هذا يكشف عند دكتور عيون يا عمي.'

و'هل جاء من بني سويف إذن؟ همم. الحزين طردوه من هناك. أم يكون سرق له سرقة وهرب إلينا هنا لنداريه؟'

دعكت جفني في صمت بليغ وأنا أستمع إلى النقطة الأخيرة، فهي لم تكن عن ميخائيل.

لم يكن ميخائيل أفضل في الصباح التالي. على الرغم من ابتلاعه حوالي ثمانية أقراص من ذلك البرشام الخطير الذي يضيع الدوخة، صار أسوأ بمراحل. كان يتطوح لك بطريقة مرتعشة بسبب البرد الغريب الذي ملأه، وبدأ وعيه نفسه بما حواليه يقل، ورأسه كان يسقط منه، وكانت أيضاً المياه مقطوعة في الشارع من الصباح الباكر فلم يغتسل ولم يتمكن من تمشيط شعره. عندما فتح لي كان في حالة يعلم بها الله: عبارة عن بقايا إنسان.

كان قد نام بملابسه لأنه لم يقو على استبدالها. فوق هذا، كانت الدنيا برداً خفيفاً فعلاً في أثناء الليل فشعر ميخائيل بأنه قد قضى الليل في ثلاجة. وقال لي هذا عندما ألبسته الجزمة، لأنه لم تكن فيه طاقة لفعل هذا بنفسه. فسألته عن الصلاة وأنا آمل حسناً، فقال لي ميخائيل:

'لم أقو على نصب طولي يا جون! لماذا أحس بالبرد هكذا؟ أنحن في فريزر يا رب؟ وأمريض البولينا لا يحتمل البرد يا جون؟ لابد أنه لا يحتمل البرد!'

وقفت وسألته في ضيق:

'هل تحتاج لشيء آخر يا عم ميخائيل؟'

فبكى ميخائيل وهو يصيح:

'أشكرك يا جون يا حبيبي! أشكرك! أنت قديس وإنسان يا جون. لم أكن أعلم أنك هكذا يا جون!'

ثم استمر في بكاء متواصل فقلت له:

'لماذا تبكي يا عم ميخائيل؟... أرجوك توقف.'

لكن ميخائيل استمر، وقال لي:

'أنا إنسان حياته منتهية يا جون. بالتأكيد أنت لا تحترمني الآن يا جون.'

'من قال هذا؟'

'أنا أعلم يا جون أني فقدت احترامك لي. لن تعزي في جنازتي يا جون يا بابا.'

أفهمته أن هذا لن يحدث. ثم ربتّ على كتفه فهدأ قليلاً، فرفع ميخائيل رأسه لي وقال:

'سيأتي يوم يا جون يا بابا حينما أعوضك عن كل شيء يا حبيبي، لن أنساك أبداً يا جون!'

'أنا أيضاً لن أنساك أبداً يا عم ميخائيل. ما الذي دعاك لأن تقول هذا؟'

فأخرج ميخائيل منديله القماشي القذر، ونف فيه بقوة، ثم قال لي:

'هذه مرحلة سنعبرها أنا وأنت يا بابا. إنها تجربة من الله، ليس أكثر يا جون. أليس كذلك يا جون يا حبيبي؟ أليس كذلك رأيك أنت أيضاً؟ ماذا تظن في هذه المسألة يا جون؟ إن الله يجربني يا جون لابتعادي عنه طوال تلك السنين... سأقول لك شيئاً يا جون.'

كانت معنوياتي قد ابتدأت ترتفع بكلامه عن الدين، وقلت الولد تاب وانصلح والواحد سيرتاح نفسياً من ناحيته أخيراً، لكنه عندما أكمل، وقعت في ظلمة تامة.

'إني لن أصلي ثانية يا جون.'

'لماذا؟'

'لأني أحب الله يا جون. أنا من بداياتي غير جيد يا جون ولن أخدع ربنا أكثر من هذا.'

ثم ابتسم لي بفخر لأنه قد وصل لهذه النتيجة المشرفة، فلم أرد أن أعارضه. فوق هذا، كانت معلوماتي الدينية أكثر ضعفاً عن أخواتها في علم النبات، فلم تكن معي حجة أحاججه بها، وميخائيل كان مخلوقاً وقرأ كتباً كثيرة ولم يكن مثلي من يصلح لأن يصلح له مخه. وكلت أمره للإله الذي خلقه ورأى ما فيه.

قال ميخائيل أنه ينوي الذهاب إلى الدكتور مجدي غبريال، جارهم القديم الذي كان يعالج أمه، رغم أنه طبيب مسالك. فلما اعترضت، هاجمني بقوة، وتعصب لك، وزعق، وقال أنه طبيب ممتاز وكل شيء. ثم، ثم من قال أن لديه شيئاً في الكلى على أي حال؟ ما هي إلا أنيميا!

بعد أن خرجنا وأغلقت الكالون، طلب مني أن أفتحه له مرة أخرى لأنه كان قد نسي علبة البرشام السحري الذي يضيع الدوخة. ففتحت له الباب فارتمى لك ميخائيل فوق الكنبة وجعلني ألتقط له علبة البرشام الصفراء من فوق الترابيزة. ثم ذهبت وأحضرت له كوباً من الماء، فبلع ميخائيل ثلاث برشامات. والآن بعد أن مسح لك ميخائيل حول فمه بطرف كمه، ارتعش لك وانتفض كأن روحاً لبسته، ثم انتصب لي كالخازوق وقال:

'الآن سأصبح مثل الحديد يا جون!'

لكنه سقط مرة أخرى فمسكته بسرعة.

كان صباحاً ساقعاً وهادئاً. سرت بميخائيل خطوة خطوة ناحية آخر الشارع، فكان رأسه يقع منه في كل خطوة فيقاوح ويرفعه ويبلع ريقه. وعندما وصلنا لناصية الدمرداش، تركني واندفع وحده ليوقف تاكسياً. فوقف التاكسي لكن ميخائيل صمم على أن يدفع له حسابه من الخارج حتى لا يخادع الرجل ويأخذ أكثر من جنيهين. وكانت فكرة في منتهي الغرابة، لأن الرجل كاد يفر ويتركنا بعد أن أخذ نقوده، لولا أن سيارة أخرى ركنت بالصدفة أمامه.

كنت أفكر في فلوس ميخائيل في التاكسي. كان المتعوس قد أنفق قرابة المائة جنيه حتى الآن: أضف ثمن علبة الأقراص (ثمانية وخمسين جنيهاً،) على تسعة جنيهات أكل وعنجهة، على فلوس كل المواصلات، على ثمن ثُمن كيلو لانشون وبجنيه جبنة دمياطي من عند أيمن وكيس عيش فينو بخمسين قرشاً تعشى بهم، المحصلة فعلاً تقترب من المائة جنيه. وكان ميخائيل يضع الفكة في جيب قميصه العلوي والفلوس الحية في المحفظة (المئات،) مما يعني أنه سيخرج مائة ثانية من المحفظة عما قريب. ولم أكن أريده أن يخرج بنفسه فلوساً من المحفظة.

وصل بنا التاكسي إلى منطقة يقال لها 'المجمَّع، ' لأنها عبارة عن عدة شوارع ضيقة متقاطعة بها مول تجاري ومحلات ملابس متعددة ومحلات أحذية ودكاكين لبيع الأدوات المنزلية. أنزلنا قبل محل أحذية لطفي، وكاد ميخائيل يدفع له ثانية لكني ذكرته بأنه دفع له فعلاً، ثم أخذته من ذراعه وسرت به. كانت الدنيا زحاماً بشكل لا يطاق، وأغلب المتزاحمين كن سيدات: سيدات بيوت وآنسات على أبواب الزواج ومتزوجات حديثاً. أضف بعض الشباب القليلين من الذكور غالباً للتفرج على الجزم أو الملابس أو السيدات. الكل يجيء هنا ليشتري بأسعار رخيصة. كانت هذه المنطقة قلب المدينة التجاري قبل أن تبدأ مناطق أخرى في منافستها في الساحل وكرم عمران.

اخترقت بميخائيل الزحام بصعوبة، فسرت أنا أمامه، ومسكت بيده من خلفي وجررته. وكان هو غائباً عن الوعي: دماغه مائل، وعيناه مغلقتان، كأنه كان

منوّماً مغناطيسياً. أمام الحسن مول عرجت به يميناً، حيث محل كلاسيك الذي يبيع ملابس رجالية كلاسيكية بأغلى الأسعار. كان هذا هو المكان الذي وصفه ميخائيل وقال أن عيادة مجدي عنده. لكني لم أجد أثراً لأي يافطة تشير إلى مجدي هذا. غير ذلك، فإن ميخائيل قال أن العيادة خلف محل كلاسيك، ولم يكن شيء أمامي خلف المحل، فالمحل كانت خلفه محلات أخرى ولم أكن أرى أي شيء أو أي مدخل عمارة مثلاً أو شيء. لكن ميخائيل عاد فقال أن عيادة مجدي هنا، فبحثت لك عن مدخل، عن أي جحر، عن أي شيء، فلم أجد. فسألت رجلاً كان ماراً فقال أيضاً أنه لا يعرف. أما ميخائيل فكان كلما يغوص في غياب الوعي وبدأت حقاً أخاف عليه، لكنه أشار بيده إشارة مرتعشة وقال أن العيادة مدخلها بجوار محل كلاسيك يا جون يا بابا. فركنت ميخائيل إلى عمود نور وبدأت أبحث عن المدخل بنفسي. وكان بالفعل هناك شق بين محل كلاسيك والكوفي شوب الذي يليه: ممر غريب ينتهي بصيدلية وبه مدخلان لعمارتين ومحل عصير بدا حديثاً. فعدت وأخذت ميخائيل من يده وسرت به، فأشار لي بضعف شديد إلى مدخل العمارة الأولى، فدخلت به، وبالفعل قرأت اسم 'الدكتور مجدي غبريال' على أحد اليافطات الصغيرة في مدخل العمارة.

صعدنا الدرجات بصعوبة وميخائيل فاقد لكل أنفاسه. كانت العيادة واسعة، عالية السقف، جيدة التهوية، تناسب اتساع وقدم العمارة نفسها. دخلت بعمي ميخائيل فشعرت بالفخر. كنت أحس أني إنسان مسئول ومعي مريض من العائلة للكشف عليه. وكانت المرة الأولى التي أحسست فيها بهذا الشعور.

كانت هناك فتاة جميلة (تظاهر ميخائيل بأنه تعنقل فيها) تلم الأجرة قرب الباب وتلبس الأبيض، سألتها بكم الكشف، فأجابت بصوت منخفض:

'اثنان وخمسون.'

فصرخ ميخائيل:

'لماذا اثنان وخمسون ؟ هل الناس سعرت في هذه الدنيا!'

والغريب يا أخي أنه طلب مني أن أستخرج له قيمة الكشف من المحفظة بعدها بسهولة. والغريب أكثر أنه كان على علم بالأجرة مسبقاً لأنه كان قد أتى بأمه خمسين مرة إلى هنا من قبل.

كان على ما يبدو هناك نوعان من الكشف: عادي ومستعجل، وكانت هذه هي أجرة العادي. أما المستعجل فلم نعلم بوجوده أساساً إلا بعد فترة، عندما أتت جماعة من الفلاحين تحمل رجلاً عجوزاً في حجم الجمل. وقد تسبب هذا في مشكلتين: الأولى منهما أن ميخائيل قد قام وقعد وعمل ضجة، على أساس أنه أولى بالدخول قبل الكشف المستعجل مع أنه لم يكن دوره حتى بين الكشوف العادية. والثانية أن فشله في ذلك أثاره بشدة، مما جعله يسترد بعض الوعي، فأخذ يحكي لك ويفضفض عن مشاكله للمنتظرين من حوله، وبالأخص فقدانه لرجولته بعد عملية العمود الفقري التي أجراها في بني سويف. وكان وقتاً والله عصيباً للغاية.

ثم سقط لك ميخائيل على كتفي وابتدأ نَفَسه يتذبذب. وكنت أخاف عليه أن يموت لحظتها. كانت الدنيا قد ابتدأت تبرد أكثر ودخلت بعض التيارات الهوائية من الشباك الوحيد في العيادة، فضممت سوستة السويتر الخاص به حتى أغلقتها له. لكنه لم يتحسن، وسال أنفه أكثر. وبعد فترة، جاء دورنا. دخلنا بعد أن خرج رجل محترم ببدلة بيج وزوجة أنيقة بشعر أبيض، وكانت التومرجية الجميلة قد سبقتنا. كانت حجرة الطبيب أقوى إضاءة فبهرنا الضوء لثوانٍ، ثم رأيت بوضوح، وأنا أرفع عمي ميخائيل، حجرة واسعة، دهان حيطانها أبيض، بها صورة واحدة معلقة توضح منظراً طبيعياً منسوجاً في سجادة صغيرة مبروزة، وبها ركن مظلم آخر اليسار. وضعت الممرضة بعض الكتيبات الصغيرة الملونة على مكتب الطبيب وقالت أن المندوبين أحضروها، ثم غادرت. وأردت أن أنظر لمشيتها وهي تغادر لكني غيرت رأيي. أما وقد نظرت بعدها بوضوح، وبحرية أكثر بعد أن أرقدت ميخائيل على الكرسي، فقد دق قلبي والله بالحب للطبيب. فمن رأيته أمامي لم يكن الدكتور مجدي، ولا إنسان، لكني رأيت ملاكاً، رأيت بابا نويل نفسه. كان عبارة عن

رجل قصير، أصلع، لكنه بشرته بيضاء ناعمة، وملامحه مستوية ومنبسطة، وما تبقى من شعر له على الجانبين كان أبيض ومقصوصاً بشكل يوحي لك بأنه لا يستطيل ولا يقص أبداً، ولعلي لا أذكر عينيه، فقد كان تأثيرهما مختفياً خلف نظارة طبية ذات إطار لامع، وكانت ملابسه بيضاء كذلك.

استقبلني الرجل بودية شديدة، لكني علمت بعدها أنها عملية أيضاً. فبعد أن جلست أمام ميخائيل لم يبد أي إشارة إلى أنه ميّز ميخائيل، بل طلب مني بسرعة أن أسرد أمامه حالته. كان ميخائيل غائباً تماماً عن الوعي، فاعتمدت على نفسي وأخذت أشرح للدكتور ما لدي عن حالته: الدوخة، البرد، تدهور الوعي، خلافه. سألني متى آخر مرة عمل بولاً، فلم أعرف. سألت ميخائيل، لكن ميخائيل كان يشخر. في النهاية قام الطبيب وقد قرر أن يفحص ميخائيل. فأيقظت ميخائيل وأخذته إلى سرير الكشف الواقع في آخر الحجرة تحت لمبة من لمبات المكان، وجعلته يخلع السويتر، ثم أرقدته. المميز جداً في كشف هذا الطبيب الأخير أنه كان يغوص بيديه داخل البطن بشكل لم يؤلم ميخائيل (أو لعله كان نائماً،) ومما أعطاني الانطباع بأنه إنسان فاهم. المهم، لما انتهى الطبيب من الطبل والتفعيص، عاد إلى كرسيه وقد اظلم لون وجهه هو الآخر، ولأول مرة في حياتي رأيت كيف يتحول اللون الأبيض إلى داكن.

'تحليل بول.'

كنت تواً قد انتهيت من إلباس ميخائيل ملابسه، فتهت في هذه المسألة. أخذتنا الممرضة إلى حمام ضيق بالعيادة وأعطتني كوباً من البلاستيك. كنت بالطبع أعتمد على ميخائيل، لكني وجدته فاصلاً تماماً وعيناه كانتا مغلقتين، فاستسلمت لنصيبي في ذُل. أخذت عينة، لكني أقسم بالله، أني نظرت بعدها إلى ميخائيل فرأيت إنساناً في قمة الوعي، بل وشكرني فقال لي:

'متشكرون يا جون يا بابا.'

جررته مرة أخرى إلى حجرة الكشف. سلمت العينة للدكتور بحذر وقرف فأخذها من يدي باعتياد، ثم اتجه نحو الركن المظلم في الحجرة فضغط زراً فأضاء المكان نور أصفر ضعيف. رأيت ميكروسكوبين، فجلس الطبيب خلف أحدهما وسكبّ نقطتين على شريحة زجاجية، ثم أضاء الميكروسكوب وبدأ ينظر. في الحقيقة، لم يأخذ نصف دقيقة حتى رجع مرة أخرى وأطفأ النور. جلس خلف المكتب مكشراً كأن أحداً مات لديه، وبدأ يكتب روشتة.

'الأهم هو نظام الأكل. سأحدد له نظام أكل لابد أن يمشي عليه، وإلا...'

ثم سألني:

'هل تعيش أنت معه؟'

قلت له مندهشاً:

'إنه ميخائيل... ابن أم عادل، . . . .'

لكنه قاطعني:

'نعم نعم، وهل تعيش أنت معه؟'

'لا، إني آخذ بالي منه فقط حالياً لأنه قريبي... أنا أسكن في بيت الأنبا تادرس.'

بص إلى الروشتة، ثم ابتدأ يكتب وظل مكشراً. كتب ورقة أدوية، ثم ورقة ثانية بنظام الأكل ونبه على أهمية عدم أكل البروتينات وخاصة اللحوم، ثم طلب مني أن أنزل فآتيه بالعلاج بسرعة ليراه. كدت أذهب بدون عمي ميخائيل ولكنه قالها لي هكذا، كما لو بحرج:

'خذه معك أرجوك.'

نزلنا السلالم وميخائيل في حالة منتهية جداً. كان ينزل من كل درجة للأخرى كأنه كان يسقط من قمة لأخرى، وصار تنفسه الآن أكثر ارتفاعاً عما كان من قبل، وأغلق عينيه. بالأسفل كان الممر هادئاً وبارداً وأوحى لي بجو غير واقعي، كأننا كنا في قصة أسطورية أو شيء، ربما بسبب رصفه بالأحجار المضلعة. لكني، لسبب

ما يا أخي، شعرت بحسن الحظ، وتوسمت خيراً وأنا أتجه نحو الصيدلية. وحقاً صدق ظني. فقد وجدت لك في هذه الصيدلية 'سامو،' الأخ الأصغر لمكين (عامل الصيدلية الواقعة قرب ناصية الدمرداش،) وهو شاب قصير ملون الشعر والعينين يشتغل بالصيدليات مثل أخيه. وكنت سبق وقابلت سامو مرات من قبل وحكى لي فعلاً أنه يشتغل في صيدلية بالجوار، ولكني لم أتصور أنه ربما يكون يشتغل هنا. تلقاني سامو بترحاب ودفء، وعانقني، وسألني عن أحوالي وكل شيء. كان أقصر مني، وبالنسبة لميخائيل وصل إلى حزام بنطلونه تقريباً. ثم سألني عن ميخائيل، وكل شيء، ثم أخذني وأجلس ميخائيل على كرسي أمام مكتب الصيدلي. كانت صيدلية طولية، يبلغ طولها حوالي خمسة أو ستة أمتار، وبابها كان من الجهة البعيدة، مما جعلني أرى من حيثما وقفت أن الممر كان على شكل حدوة حصان وأن له منفذاً من جهة أخرى لم أرها. وكانت أرفف الصيدلية باللون الأحمر الداكن، وكان هناك صبي آخر كان جالساً على السجادة الممتدة خلف البارات بالداخل لما دخلنا. أما الصيدلي فقد كان رجلاً بشوشاً، بدا أنه طيب فعلاً، بشارب، وكان نحيلاً لكن ظهر أن صحته جيدة بتورد بشرته وحركاته السريعة الخفيفة. جلس ميخائيل أمام الصيدلي وتمام التمام، وقال سامو أننا من معارفه، . . . . إلخ، ثم أراد الصيدلي أن يسقينا شيئاً، وليكن مشروباً ساخناً مثل الكركديه، لكني رفضت وأنا أشكر. ثم جاء أوان الحساب، وعينك لا تشوف إلا النور.

الروشتة التي كتبها المبدع مجدي غبريال كانت تتكون من عدة حقن 'زيت' (كما وصفها الصيدلي،) ثم عدة براشيم، وبعض اللبوس لميخائيل، بمبلغ ٣٠٠ جنيه وكسور. كاد يغمى على عمي ميخائيل، ثم تبعت هذا نوبة من الغضب الشديد، وصرخ ميخائيل وهو يحاول أن ينط من مكانه (لكنه كان يخور ويسقط على الكرسي في كل مرة):

'هيا بنا يا جون! هيا بنا يا جون!'

حاولت أن أطيب خاطره ولكني لم أعلم كيف. وأخذ لك ميخائيل يسب ويشتم مجدي وأمه، وقال أنهم أناس أوساخ وأن طينتهم وسخة، وأن جده كان يضرب رأسه بالشبشب لكي يخرج الذباب، .... إلخ، وكم كان إحراجي أمام سامو والصيدلي! ثم تدخل الصيدلي الطيب، فقال في تفهم لغضب ميخائيل:

'الحق يقال كان الله في عونك، الروشتة غالية. ولكني أقول لك، خذ يا عم الأدوية، وإن لم يكن معك فلاحقاً.'

سكن ميخائيل هنا نوعاً ما. وجدها فرصة. قال أنه رغماً عنه سيضطر أن يقبل بهذا الحل المؤقت، حيث أن النقود التي خرج بها اليوم جميعها نفذت، بشهادة البشمهندس جون، وأنه سيرسلني ثانية بثمن الدواء ما أن نصل لعتبة البيت. وجدت وجه الصيدلي يتغير لونه ويتبادل النظر مع سامو، الذي نظر إليّ في استفهام كأنما ليتعهدني بسداد المبلغ إن حدث شيء حيث أنني من معارفه وعلى مسئوليته. فتدخلت بسرعة وقلت لعمي أني لن أستطيع أن آجيء ثانية إلى الصيدلية لأني مسافر إلى فرشوط في مساء نفس اليوم لأن عمتي ستقوم بعمل عملية إزالة اللوز، وأن كثرة العلاج تعد ضرراً عليه، وقرأت له كذباً من الروشتة بأن نظام الأدوية يتضمن جزءاً في أول خمسة عشر يوماً وجزءين بعد ذلك بستين يوماً، ثم في النهاية كنت أنا صاحب الاقتراح بأن نأخذ نصف العلاج فقط ونأتي لنأخذ الباقي لاحقاً، وهو ما كنا نعلم جميعاً بأنه لن يتم. والحمد لله دفع ميخائيل فسمعت تنهدات راحة كثيرة.

تركت ميخائيل ليتسلى شويا مع سامو والصيدلي الطيب، وصعدت راجعاً للعيادة. عندما دخلت بعد انتظار دقائق لحين خروج الكشف، وضعت للدكتور ما اشتريناه فوق المكتب، فعاينه بعناية لم أتوقعها، وسألني عن الأصناف المتبقية فصارحته بأن الفلوس نفذت. علّم عليه علامتين أخريين، وقال دون ينظر إليّ:

'إن حالته حالة، لا أعرف كيف أتى من بني سويف. يجب أن ترجعه إلى هناك في أول فرصة، وسأتصل بعادل لكي يرجعه إليّ بعد ثلاثة أسابيع. سنأخذ العلاج ونرى ما سيكون، فإن تحسن، كان، وإن لم يتحسن، فلا مفر من الغسيل.'

سألته قلقاً:

'إن لديه البولينا إذن يا دكتور مجدي؟'

'نعم، بطريقة أو بأخرى. إن ما لديه هو التهاب كبيبي كلوي مزمن، هذا هو اسمه عندنا. عدة التهابات متتالية، وتصل الكلى إلى هذه الصورة. لابد أنه كان يعاني منذ فترة، ولكنه لم يهتم.'

كان قد مال بكرسيه إلى الخلف وأخذ يمسح على صلعته وهو يتكلم، فلما انتهى قام قائلاً:

'هه، ربنا معه.'

ثم مد إليّ يداً ناصعة البياض وهو يختم بابتسامة:

'ولتصدقني القول إنها فرصة سعيدة.'

هبطت متعوساً جداً من العيادة، وأخذت عمي ميخائيل من الصيدلية، وخرجت به من الممر. كانت نفسيته هو قد ارتفعت جداً بعد الوقت الذي قضاه مع الصيدلي وسامو، بل ولقد أعطاهما رقم أخيه عادل في بني سويف وأخذ أرقامهما لكي يتواصل معهما بعد رحيله. سرت به وأمام الحسن مول قابلتنا هنية الشحاذة تستعطف العابرين، فعرفتنا وعرفت ميخائيل بالأخص، وسألته عن أمه فضحك ميخائيل وقال لها:

'كيف حالك يا هنية؟ ألم تتزوجي حتى الآن يا هنية؟'

كان تائهاً، وبدأ يخرف. وقد داس قلبي عليّ لأجله وحمقت. سمحت له بأن يجلس على رصيف مرتفع قدام الحسن مول فأخذ رأسه يسقط بين فخذيه، وكانت هنية قد رحلت وتركتنا. بعد عدة دقائق كان قد أصبح أفضل، فحملته وخرجت به من المجمَّع. ولم أتم به لفة الميدان حتى لهث لي:

'أريد أن أشتري شنطة يا جون يا بابا.'

ثم قال أنه ينوي سيسافر في 'فرنساوي الخامسة والنصف يا جون يا بابا،' وقال أنه يريد أن يأخذ كل ملابسه معه إلى بني سويف لأنه يعتقد أنه سيتأخر هناك. وفي عز همي ضحكت وأنا أرى عمي ميخائيل يسيل لعابه وهو يدفعني نحو محل شنط 'غالي' لكي يشتري شنطة، وكأن الشنطة قد أصبحت عنده شهوة جسدية، تماماً كالأكل والجنس.

كان محل شنط غالي هذا يقع في أوائل شارع أيوب، القريب من الإشارة. كانت هناك واجهة مزدحمة بالشنط المعروضة وبعض المعروضات الجلدية الأخرى بالإضافة إلى عدد من الدمى الرخيصة التي يبيعها غالي بأثمان مرتفعة، وكان هناك رجل يعلق شنطة، رفضها زبون، بواسطة عصا خشبية طويلة آخرها مسمار. المهم، دخلت لك مع عمك ميخائيل، فتفرج لك على ألف شنطة، لم ير أيها بسبب تدهور نظره فجعلني أنا حكماً له، ونصحته بجميع الشنط، لكنه لم يقتنع. وأخيراً عندما اختار له البياع شنطة تشاجر مع الكاشير شجاراً فرّج علينا كل الخلق، لأنه كان يريد أن يدفع له خمسة وأربعين جنيهاً بدلاً من ستين جنيهاً، ولم تكن بالمحل سياسة فصال. كان المحاسب على ما بدا رجلاً قوي الطبع، فلم يكترث على الإطلاق لميخائيل، واستمر يحاسب الزبائن حوله متجاهلاً إيانا تماماً. فأخذ ميخائيل يرفع لك السعر، مقترباً من الستين، بتدريج بطيء، وبعصبية شديدة. فقال ستة وخمسين، ثم ستة وخمسين ونصف، ثم سبعة وخمسين إلا ربع، ثم سبعة وخمسين إلا عشرة قروش، ثم سبعة وخمسين. وهنا توقف فركب رأسه إلا ولازم يشتري بهذا السعر. فأفهمنا عامل المحل أن المحل لا يقبل الفصال وأن هذه هي الأسعار النهائية، ولكن ميخائيل، المغمض العينين المائل الرأس، اعترض وتحشرج صوته وزعق وتعصب، وكاد يسقط لك من الغضب. عندها فعلت الأمر الوحيد المتاح أمامي: دفعت الجنيهات الثلاثة الفارق من جيبي دون أن يلاحظ، وأعطيت المحاسب الستين جنيهاً. ولعل ميخائيل لم يكن ليلاحظ أي شيء على

الإطلاق، فقد كان حاضراً معنا بالجسد فقط، وكنت أنا من يخرج الفلوس من جيب قميصه العلوي فكان يمكنني أن آخذ منه ما أشاء بدون أن يدرك، ولكن لم يهن عليّ أن أفعل ذلك.

وضعت العلاج داخل الشنطة، وحملت الشنطة بيد وساندت ميخائيل بالأخرى. وفرح ميخائيل جداً بأنه غلب ذلك البائع الأشقر اللوطي (على حد وصفه،) وضحك وقال:

'ها ها ها. أترى يا جون يا بابا؟ هذه هي طريقة التعامل مع تلك الأشكال!'

وكاحتفال، كانت عزومة أخرى على الغداء.

كان يريد العودة إلى أخبار اليوم، ولكني نبهت عليه بأن الطبيب قال أنه لا يجب أبداً أن يأكل من اللحم. فتظاهر بأنه أغلق أذنيه أيضاً بجانب عينيه، لكني كررت له بتصميم. فاستسلم في النهاية قائلاً:

'أحقاً قال الطبيب ذلك؟ حسناً حسناً يا جون، لا لحوم لا لحوم. أوامر الدكتور مفيدة لصحة الإنسان يا جون!'

اقترح أن نذهب فنأكل أكلة فول وطعمية في شارع رزق باشا، فعارضته في البداية لعدم انفتاح شهيتي، لكني وافقت أخيراً رأفة به وبي، لأن ريقه سال وأخذ يمص شفتيه، واضطربت أجفان عينيه، فبدا أنه سيأكلني أنا إن لم يكن. لم نأخذ تاكسياً، لأن شارع رزق باشا كان قريباً، فتمشينا لك أيضاً وقال ميخائيل:

'هل تعلم يا جون يا بابا؟ إن من يقرأ قصة جون دالتون يظن أنه كان إنساناً فاشلاً يا بشمهندس جون.'

لم أعلم من هو جون دالتون ذلك، ولا ماذا كانت علاقته بما كنا فيه، لكني سايرته.

'ياه، لماذا؟'

أخرج منديله ونف، ثم وضح وأنا أكاد أسحبه سحباً:

'لم يكن شعبه يحترمه يا جون. كان تفكيره بطيئاً، تماماً مثلي يا جون، وكان يحترم العلم الدقيق المتأني والبحث الطويل. هل تصدق أنه كان يدون كل يوم حالة الطقس يا جون، فلم يبطل هذه العادة إلا قرب نهاية أيامه؟ هيه؟ هل تصدق هذا يا جون؟ إن في الخارج علماء أجلاء شرفوا البشرية وشعوبهم بعملهم وكفاحهم يا جون، وأنا أنوي أن أكون مثلهم. إن في الأرض رسالة يا جون. إن ربنا خلقنا لأجل رسالة يا حبيبي. وهناك عدو الخير دائماً يحاول أن يأخذك من مصيرك. هل نمشي وراء عدو الخير يا جون؟ إن عدو الخير سيء يا جون. إن عدو الخير أسوأ إنسان في هذه الدنيا. انظر إليّ يا جون: هل رأيتني ذات يوم أستسلم لعدو الخير مثلاً يا حبيبي؟'

'هاه؟ بصراحة لا، لم يحدث.'

'كان أمامي عبدالله، الله يرحمه. كان يمكن أن أؤدب عبدالله أثناء حياته ولا أجعله يهنأ بيوم في حياته، ولكني قلت: يا ولد اسكت عليه، إنه أخوك وحياته قصيرة، وربنا ذات نفسه غير راضٍ عنه يا جون. هل ترى الآن أين عبدالله يا جون؟ إن عبدالله مسكين يا جون لأنه ذهب حيثما ذهب، وأنا حزين لأجله يا جون.'

ثم ابتدأ يبكي.

'إني شديد الحزن على عبدالله يا جون. أخي مات يا جون!'

فأجلسته على رصيف مجاور وتركته يبكي له شويا. ثم مسح أنفه، وتفل على الأرض، بعدها قام فطلب مني أن أستكمل به المشي.

لم يتكلم عن عبدالله مرة أخرى، ومع معاناة السير بدا كأنه نسي تدريجياً همه، أو همه انتقل إلي حمولة همومي. كان ميخائيل يحب لك التصرف والكلام بالأساليب المسرحية، لكنه هنا كان مشتتاً، هذا شيء، والشيء الثاني أنه كان صادقاً: من المرات القليلة التي شاهدت فيها ميخائيل وأنا واثق من أنه صادق.

أكلنا في مطعم فول وطعمية قذر بحواري رزق باشا، تلك المسماة 'زينب.' كان مطعماً غريباً من جهة أخرى حيث لم يكن هناك أحد غيرنا ومع هذا كانوا يحشون ساندويتشات غريبة العدد ثم ينظرون إليها في حيرة.

بعد هذا رجعت بميخائيل إلى تقاطع كليوباترا مع رزق باشا. فخار ميخائيل وتكوم على الأرض.

'تاكسي يا جون، تاكسي!'

كان خطئي أني أنهكته أكثر من اللازم على ما يبدو، ورأيت منظره كمن يعطي أنفاسه الأخيرة فخفت عليه. أوقفت له تاكسياً حديثاً ورجعت به للشقة. كان فاقد القوة تماماً وحملته تقريباً حملاً. وبعد أن بحثت له عن المفتاح في جيب البنطلون (شممت الرائحة السيئة المألوفة بعمق أكثر،) أنمته بسرعة فوق الكنبة. كانت الساعة وقتها نحو الثالثة وكسر، تقريباً والثلث، وقد امتد شعاع مستسلم من الشباك فبان شحوبه واصفراره أكثر، وقد اضطربت أنفاسه وصار بها صوت كأنه صوت فقاعات أو شيء مشابه، فامتلأت بالقلق.

أخذ دقيقتين منهوكاً، ثم اعتدل بالتدريج، وعاونته، ثم وجد نفسه دائخاً فقرر أنه يريد أن ينام. ونام في لحظتها وشخر عالياً. اختلط صوت الشخير المعروف بصوت هذه الفقاعات الغريبة، بل أنه قد تهيأ لي أن بعض الفقاعات قد خرجت من أنفه وهو يشخر. جلست قبالته على كرسي لا أجد ما أفعله. أحياناً أراقبه، وأحياناً دماغي يميل مني. كان القطار في الساعة الخامسة والنصف، ولم يكن قد لم شيلته بعد، ولم يكن حتى قد حجز بعد، لذلك كان لزاماً عليه أن يستيقظ في الرابعة على الأقل، بعد نصف ساعة، أو كان عليّ أنا أن أيقظه: مهمة ثقيلة خاصة وأني كنت مائلاً للنوم. لهذا فقد قررت لك أن أقوم بجولة في الشقة. ذهبت لحجرة الأم. تذكرتها وتذكرت أيامها فترحمت عليها (لم يكن ليقع بظني أنها ستعمر حتى لحظة كتابتي لهذا السطور.) وذهبت لحجرة عبدالله وميخائيل، ورأيت جهاز الاستقبال ماركة سترونج، وجلست على بطانية عبدالله السانتامورا الجديدة التي مات أسفلها. كان

هناك الهدوء في كل مكان. وذهبت إلى المطبخ، القذر المليء بالصراصير، ثم إلى الحمام، الذي اتهمني فيه ميخائيل مع أني لم أدخله. ثم عدت لميخائيل وهمست بالقرب منه:

'عم ميخائيل...'

لكنه لم يتنبه. فوضعت يديّ في جيبيّ وأخذت أدور في الشقة مرة أخرى. دخلت حجرة الكراكيب، وبعدها رجعت للصالة فنظرت من الشباك. لكني لم أر شيئاً حسن الرؤية. كان هناك سور مهدم وبقايا حجرة لعلها حجرة بواب أو حارس.

وعدت وجلست قصاد ميخائيل مرة أخرى، وفي نيتي أن أراقبه لعدة دقائق. بدا مثل الميت بانطفاء لون وجهه وانفتاح فمه درجة قليلة. لكنه لم يبد مثل الميت بشعره الهائج المضحك وسويتره الهائل والتواء ذراعه تحت جسمه. بعد لحظات وجدت رأسي يميل مني بهدوء، فقررت أن أيقظ عمي ميخائيل. قمت وهززت له كتفه برفق، وناديته:

'عم ميخائيل...'

ثم قمت بعدله على ظهره، ونظرت في هيئته. كان يبدو هنا مثل الميت تماماً. لمست بشرته فكانت باردة. نزلت نحو أنفه فشممت الرائحة إياها ولم أشعر بأنفاس.

الفصل الرابع
الكاهن الشرير.

لم تقم جنازة لميخائيل، على الأقل في المدينة. جاء أخوه وأخذه (بمعاونة شكرالله وملقي،) ملفوفاً في قماشة وسخة أحضرها صبري قال أنها كانت تغطي كنبة أنتريه عنده، مع أني أظن أنه كان يمسح فيها مؤخرته أو شيء من هذا النوع، وغادر عادل بدون لمة، ولا، صدقني، دوشة: أهدأ يوم في التاريخ. والزيطة الوحيدة التي حدثت كانت بشأن وجود السلسلة المفقودة لعبدالله حول رقبة المتوفي، وفقدانه لمحفظته. أنا لم أعلق، وأنا الوحيد الذي بكي. بكيت كثيراً جداً، لدرجة أن الجناز الذي انعمل انعمل لأجلي في السكن، وواساني الجميع يومها، وجلس معي Current والدقرم وحمص، ويتهيأ لي أن حمص زعل عليه أكثر من عبدالله. أما بطارخ فقد انكسرت رجله في نفس اليوم، مما جعلني آمل أن تكون تلك إشارة إلى أن ميخائيل قد ذهب إلى السماء.

ثم توالت الأحداث سريعاً.

رحل شريف للأسكندرية ليعمل بودي جارد أو ما شابه، أو لعله مشرف أمن أو رجل أمن، لا أعرف في تلك الأشياء. والغريب أنه رحل بدون كلمة وداع، كأنه ما صدّق أن وجد الفرصة للفرار. والغريب أكثر أنه لم يأخذ زوجته معه، لأسباب مجهولة.

وحنان قيل أنها خُطبت.

وشكرالله تم شلحه من السكن بعد عذاب. تلك 'العريضة' التي جمّع توقيعاتها جلّاب يبدو أنها كانت فعالة، أو أن الأستاذ عماد أحسن استغلالها، مع

بعض الأدلة الأخرى. فأقيم اجتماع رهيب، محاكمة، لشكرالله، شعر السكن كله بالتوتر خلالها، وحضرها الأسقف والأستاذ عماد والدكتور عجايبي، وحتى وهبة. وُجه الاتهام رسمياً لشكرالله أنه كان يختلس من مال السكن، وأن الأسعار التي كتبها في كراساته المحيرة بشأن إصلاحات السكن التي حدثت قبل عامين ليست هي بالحقيقية، بشهادة وهبة نفسه الذي باعه مقابل زيادة خمسة عشر جنيهاً في راتب الشهر. ثم، ثم أين ذهبت كل تلك الغرامات التي كان يلمها يومياً إذا كان المكتوب في سجل السكن 'الطلبة ملتزمون ولا غرامات'! أجاب شكرالله بأن مصدر الاتهامات (عرفنا كل هذا من وهبة بعد ذلك، ومن الأستاذ عماد شخصياً) هو 'الولد الجديد الذي أحضرته يا سيدنا ليكون مشرفاً،' وبالتالي هي باطلة لقلة خبرته. واستشهد بشهادة إكرامي، المشرف الحوت، في أن الأسعار التي سجلها هي التي يمكن بها إصلاح السكن من طرف الصنايعية، واستشهد بكلمة الصنايعية التي قالوها بأنفسهم. ثم حاول الهروب من الاتهام الثاني بأن قال بعض الكلام المادح في شخص سيدنا، وقال أنه، شكرالله، رجل مريض يعاني من دوالي بالساقين والخصيتين، وأنه يخاف الله سبحانه وتعالى، وكل تلك الأشياء. لكن الأسقف واجهه بالاتهام الكبير، الثخين، الآخر وهو الغرامات. فأنكر شكرالله في البداية. لكن الدكتور عجايبي قال له بعصبية كأنه السلطة الوحيدة بالسكن، أو كأنه قاضي محكمة:

'الطلبة وقعوا ضدك يا شكرالله. أين الغرامات يا شكرالله؟'

فابتسم شكرالله باستهانة، وقال أن هذا، لابد أنه قصد التوقيع ضده، لم يحدث. فواجهوه بـ'العريضة' فضحك وقال أنها مزيفة، وأن 'عماد عملها.' كان، على ما قيل لنا، شكرالله أثناء المواجهة هادئاً للغاية، ولم يهتز ذرة واحدة، ولم يدعهم يحرجونه أو يخلخلونه. وبعد هذا قال كلاماً كثيراً في أنه رجل اعتنى بالسكن ولم يقصر فيه يوماً، وأنه ما تغيب عن السكن يوماً، وأنه صاحب رجال أمن الدولة لأجل خاطر الأسقف وبيته، . . . . إلخ، لدرجة أنه كاد يقنع الأسقف نفسه بالتغاضي عما حدث وابتداء صفحة جديدة. غير أن العصابة الثلاثية الجديدة التي تكونت،

الأستاذ عماد وعجايبي ووهبة الملعون، سرعان ما لعبوا بمخ سيدنا، فإذا بمشرفنا القديم مشرف مطرود.

تمت بعد هذه المحاكمة مرحلة من الفوضى في السكن. بعض أنصار المشرف القديم اعترضوا، وزاموا، وأخذوا يلعنون في عماد بدون أن يصدقهم أحد، وقالوا أن شكرالله أعظم بكثير من عماد لأن شكرالله حاذق ويسيّر أموره، غير عمك عماد الذي لا يعرف يا أماه ارحميني وغشيم. وهبة بدأ يسائل نفسه هل صح ما فعله أم لا، وكان يتجنبنا، وعجايبي حاول أن يمد نفوذه لكنه لم يجد مجالاً لذلك. ثم قبض لك عمك عماد على سلطة السكن، فزاد في اللف في الليل، وأخذ غرامات كثيرة، وحاول أن يصاحبنا فترة لكنه فشل، وقال في شكرالله كل شيء قبيح. قال عن شكرالله أن مجمل ما اختلسه من مال الكنيسة يفوق ١١٠ ألفاً من الجنيهات، وأنه كان يأخذ من كل طالب عشرة جنيهات في الليل إن تأخر عن ميعاد السكن وبلع الفلوس. لكننا كذّبناه وصححنا له أن شكرالله لم يكن يأخذ أكثر من خمسة جنيهات: عماد هو من أصبح يأخذ عشرة.

وكان الأستاذ عماد يريد من البداية أن يصير راهباً، وقيل أنه لم يأت للسكن من أساسه إلا بوعد من الأسقف أنه إن ضبط السكن سيشفع له في واسطة تمكنه من الالتحاق بدير البراموس. لهذا حاول أن يأتي بكثيرين غيره ليحلوا محله. لكن مع من؟ لم يفلح أحد معنا وانربط معنا الأستاذ عماد في السكن وكاد في الحقيقة أن يفقد الأمل. من ضمن الذين جاء بهم شاب صغير، رفيع جداً، يدعى سيمون وتدليله برشام. هذا البرشام لم يقض معنا سوى ظهيرة واحدة ثم طفش. ثم أتى الأستاذ كمال، الذي كان مشرفاً مؤقتاً زمان، ورحل ثانية، ويقال أن وهبة طرده. بعد هذا بدأ الأستاذ عماد ينحل تدريجياً، وضعف جداً، واسود أكثر من الأول، وتكونت هالات داكنة جداً حول عينيه، ودخلت عيناه للداخل أكثر وأكثر، وأطلق لحيته، لدرجة أنه مرض وجاءته أنيميا وركبوا له كيس دم في المستشفى الجامعي. كلنا حزنّا على الأستاذ عماد، لكن هذا لم يقنعنا بأهمية العيش في سلام معه حفظاً

على حياته، وهو أيضاً عاد من المستشفى أكثر شراً، وأخبث، وبدا شكرالله بجانبه كالملاك الوديع. ولم يكتمل الأسبوع أيضاً حتى تم طرد وهبة، لأنه طالب بالزيادة في مرتبه فلم يعطه الأستاذ عماد، الذي قال له على ما بلغنا:

'يا وهبة أنت أكلت كثيراً.'

بل ومنع عنه ذلك 'التموين' الذي كان يعطيه إياه شكرالله في نهاية كل شهر: كيسين شاي، وكيلو سكر، وزجاجة زيت، وخلافه. فتشاجر العامل لأول مرة مع مشرف السكن، وبناءً عليه تم طرده في نفس اليوم. ولا أنسى اليوم الذي مشي فيه وهبة أبداً: تفل على باب السكن وقال:

'والله وأرضنا وأخذها الكلاب يا أولاد. ما هي أبوها هذه؟'

ثم حمل شواله واختفى.

تسبب طرد وهبة في مساحة فارغة كبيرة في السكن لم تتضح إلا بغيابه، فوقتها كنا في وسط أزمات امتحانات متداخلة، أعمال سنة وخلافه، ولم نكن ننزل لنأتي بالعيش، واتسخت غرفنا وشققنا جميعاً، ولم يأت المشرف الأحمق بأحد مكانه ظناً منه أنه 'سيعود ورجله فوق رقبته، وسينعدل مثل الألف وستقولون صدقت يا أستاذ عماد.'

في تلك الفترة، تقريباً أواخر أبريل، حدث أمر آخر، لكن كانت له علاقة مهمة جداً بما حدث لاحقاً. لقد مرضت ابنة شكرالله، وسمعنا أنها ماتت. ثم سمعنا أنها محجوزة في المستشفى الجامعي في قسم الجراحة، والسبب هو انفجار، لا أحد يدري لماذا، في طحالها. كانت أول مرة نرى فيها شكرالله محطماً، فحتى وقت وفاة أمه لم يتأثر الرجل، ولما طُرد من السكن بقي مصهللاً مفرفشاً كما هو وآخر دماغ. فرجع لك عجايبي يرافقه مرة أخرى بعد أن تسبب في شلحه، وسامحه شكرالله على ما بدا. ثم وصلنا أن ابنة شكرالله قد خفت خلاص، فأقام شكرالله فرحاً في المنطقة بمناسبة شفاء ابنته، ووزع كازوزا على كل الجيران وأحضر لنا في السكن ثلاثة

صناديق، وقال أنها بركة الأسقف، وقد أعلمنا بعد ذلك أن الأسقف كان يتصل به يومياً ليطمئن على ابنته، وقال له أنها ستخف و'لا تخف يا شكرالله.'

لقد تحسنت علاقة شكرالله بنا جداً بعد شفاء ابنته: صار يسلم علينا أينما لقينا، وبدأ يسأل عن أحوالنا بما بدا أنه صدق فعلاً. صار 'رجلاً محترماً' أخيراً كما قال مولانا في حنين. بل وصالح إخوته بعد مشاكلهم التي طالت لسنين. ومن هنا يبدو، أو من عجايبي لا ندري، بدأت الفكرة تكبر في دماغ الأسقف أن يرجع المياه لمجاريها.

لكن شكرالله عارض.

'لا سيدنا، حد الله.'

أو هكذا قال لنا أنه فعل. ثم عاد الأسقف وحاول معه مرة أخرى، فاشترط شكرالله:

'بشرط ألا آخذ مليماً لكي أكفر عن ماضي زمان.'

تم الاتفاق على ذلك. وتم تحرير الأستاذ عماد، ورجع إلينا شكرالله بشحمه ودمه. حقاً عاد يلم بعض الغرامات على خفيف، ورفع سعر الأنبوبة من سبعة جنيهات إلى تسعة، لكننا رضينا وقنعنا صراحة، فكله كان أهون من أيام عماد المخبولة. ثم أرجع لنا شكرالله وهبة الذي قال أنه كان مسافراً للعمل في السعودية، فعاد يمارس نشاطاته في السكن من الدس والأذية. لكن العام كان قد انقضى قبل أن يلاحظ أينا مكائده، ولم يكن ليهمنا في الحقيقة.

مرت بعد ذلك أيام مختلفة لكن لم تنته علاقتي ببيت الأنبا تادرس. فقد عدت ثانية مثلاً في أغسطس التالي لتخرجي مباشرة لأتمم مشروع التخرج المفروض عليّ والذي كان مشرفي فيه هو الدكتور حسن أبو المجد شخصياً. ثم، لسبب ما يا أخي، عملت بعدها مع مهندس ثقيل الدم اسمه حربي، كانت له مشاريع كثيرة في نفس المدينة مما جعلني أقضي فيها سنين متقطعة بعد ذلك.

كنت أزور بيت الأنبا تادرس بكثرة، وصادقت شكرالله بعد أن أصبحت مهندساً رسمياً لكن لا أستطيع أن أقول أنه احترمني بما يتماشى مع الوظيفة والهيئة التي وصلت إليها. غير أني كنت أجد البيت أفضل في كل مرة. لا أعرف هل اقتنع شكرالله بضرورة الديمقراطية وكل تلك الأشياء أم لا، مع ما حدث له، لكن مثلاً ميعاد غلق البوابة السوداء تقدم من العاشرة والنصف شتاءً الحادية عشرة صيفاً إلى الحادية عشرة شتاءً منتصف الليل صيفاً، ولم تعد هناك غرامات إطلاقاً على عدم حضور الصلاة، ووهبة تم تحذيره كذا مرة بشأن تجارته غير المشروعة في العيش، غير أنه عاند واستمر يستغل الطلبة الجدد.

لكني كنت أشعر أن هناك شيئاً ليس على بعضه يجري في السكن، أو في خلفية السكن. وأدركت هذا بعمق أكثر لما بت لك ليلتين في السكن أيام لما تشاجرت مع زميليّ المهندسين في المشروع وتركت لهم الشقة التي أجرها لنا حربي. فشكرالله لم يرتح لكونه تاب قبل الأوان، ووهبة مكبوت، والطلبة ماشيون على حل شعرهم. هل من يصدق أن بيت الأنبا تادرس صارت به شيشة ؟ أو أن مِن الخارج مَن بات داخل السكن بالأسابيع دون أن يلاحَظ ؟ وأصبح شكرالله يسألني كثيراً عن زملائي من أيام الدراسة، وشعرت في نبرته بالحنين، لأنه كان سيداً علينا أيامها.

وبالفعل صدقت توقعاتي. فإن الأستاذ عماد انطرد من دير البراموس ولم يصبح راهباً ولا خلافه، لكن تمت سيامته كاهناً في بلدتنا وتزوج من شابة طويلة هي في الأصل قريبة لوالد فادي بهجت قرابة نسب. ثم وقع على الكاهن الجديد النشط الاختيار الرسولي (كان هذا قبل نياحة الأنبا أغاثون بفترة قصيرة) ليكون مشرفاً عاماً لبيوت الإيبارشية عامة، وبيت الأنبا تادرس خاصة. لقد انقلب الزمان وها هو 'الولد الجديد الذي احضرته يا سيدنا ليكون مشرفاً' يصير فوق رأس شكرالله، الذي كان قد انربط بعقد متين مع السلطة الرسولية بحيث لا يدع له مجالاً للفرار قبل خمسة أعوام. وآه ثم آه. يا ليتك رأيت التغيير الذي حدث. أنعم 'أبونا ثاوفيلس' على أستاذنا شكرالله بنعمة رؤية الكواكب في منتصف الظهر. راح يهاجمه كلما زار السكن،

واتهمه خمسين مرة بأنه يلم غرامات غير مدونة مع أن هذا اتضح أنه لم يكن يحدث، وراجع معه في كل قرش. إن جاء سباك فكم أخذ السباك، وإن جاء كهربائي فكم أعطيته واعطني رقم تليفونه، وإن تغيرت الأنبوبة فيحملها ويرى هل الكلام صحيح أم لا. والحقيقة أن الكاهن الماهر قد استطاع أن يجمع لشكرالله غلطتين، قال شكرالله أنه نسي تدوينهما، إلا أنه رفض أن يشتكيه عند الأسقف الجديد (الأنبا فام) وفضّل أن يحفظ شكرالله 'داخل الحظيرة.' وبهذا انقلبت أيام شكرالله جحيماً، حتى صار يصعب عليك.

وكنت أكثر من زيارته، بعد أن تدهورت أحواله، فكان يصدّق ما أن أجيؤه. فيقف معي عند بوابة السكن ويظل يرغي ويحكي ويريني دوالي ساقيه المتقدمة والصاعدة فيقول:

'أترى ؟'

كأنه يتهم الكاهن الشرير بها. وقمت أحد الأيام بشراء جوربين له من جوارب الدوالي، من جيبي الخاص، فتلقاهما من يدي ببرود تضايقت منه، وسألني:

'ترى ما هي أخبار جدتك أم عادل يا ولد يا جون ؟'

فقلت له المعتاد: أم عادل في بني سويف، تخف حبّة، وتمرض حبّة. ثم أنها ما تزال تسأل عن ابنيها الغائبين فيقول لها عادل:

'ميخائيل سفّرناه لإيطاليا يا ماما وعبدالله في شغله في البلد.'

ثم أصبح يقول لها:

'ميخائيل في إيطاليا يا ماما، وعبدالله... عبدالله تعيشي أنت يا ماما!'

ولم يتقدم أكثر من ذلك. ولم تكن هذه الأخبار تعجب شكرالله، أو أنه لم يحب سماعها لأنه كان يتذكر نهاية مأساوية لاثنين من أفضل معارفه وتسلياته، فكان يكشر لك، ابن الوسخة، ويحول لك رأسه الضخم في استنكار أو ألم: كان تعيساً في حياته.

[انتهت] **مايكل برنس**